ترجمت لأكثر من 13 لغة وفاقت مبيعاتها المليون نسخة

من الأدب الكوري

سون وون بيونج

لوز

ترجمة:
منار الديناري

أكثر الروايات المترجمة مبيعًا في اليابان 2020

رواية

SEFSAFA PUBLISHING HOUSE
WWW.SEFSAFA.NET

مكتبة 1269

إهداء لـ..

من راسلنا على صراحة مرة بعد مرة
حتى أزهر اللوز وأينع في ربوع مكتبة

لوز

منار أحمد الدياري: مترجمة مصرية من مواليد 1992، درست اللغة الكورية وآدابها في كلية الألسن بجامعة عين شمس حيث تخرجت عام 2015، عملت بالمركز الثقافي الكوري بالقاهرة قبل أن تتفرغ للترجمة الأدبية، وتكتب لموقع كوريا نت "البوابة الإلكترونية الرسمية لحكومة كوريا الجنوبية"، صدرت أولى ترجماتها "مولودة عام 1982" عام 2021.

.....

لوز
طبعة 2023
رقم الإيـــــداع: 2022/27272
الترقيم الدولي: 978-977-821-306-5
جميع الحقوق محفوظة ©

مكتبة 20 7 2023
t.me/soramnqraa

الناشر
محمد البعلي

إخراج فني
علاء النويهي

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن رأي دار صفصافة.

아몬드
Copyright © 2017 by 손원평
All rights reserved.
Originally published in Korea by Changbi Publishers, Inc.

"This book is published with the support of the Literature Translation Institute of Korea (LTI Korea)."

SEFSAFA PUBLISHING HOUSE
دار صفصافة للنشر والتوزيع والدراسات
49 شارع المخزن- العمرانية- الجيزة- مصر

سون وون بيونج

لوز

رواية

مكتبة | 1269

ترجمة:

منار أحمد الديناري

صفصافة
SEFSAFA PUBLISHING HOUSE
WWW.SEFSAFA.NET

بطاقة فهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية،
إدارة الشئون الفنية

سون وون بيونج، ١٩٧٩-
لوز: رواية/ سون وون بيونج ، ترجمة منار أحمد الديناري
الجيزة، دار صفصافة للنشر والتوزيع والدراسات، ٢٠٢٢
٢٥٠ ص، ٢٠ سم
تدمك ٥-٣٠٦-٨٢١-٩٧٧-٩٧٨
١- القصص الكورية
أ- الديناري ، منار (مترجم)
ب- العنوان

٨٩٥,٧٣

رقم الإيداع: ٢٧٢٧٢/ ٢٠٢٢

إهداء الكاتبة

إلى دان

ملاحظات:

- اللامفرداتية (ألكسيثيميا)، أو عدم القدرة على تحديد المشاعر والتعبير عنها، هو اضطراب عقلي عاطفي ذُكر لأول مرة في الأبحاث الطبية في السبعينيات، وترجع أسبابه المعروفة لنقص النمو العاطفي أثناء الطفولة المبكرة، واضطراب ما بعد الصدمة، وصغر حجم اللوزة الدماغية عن الحجم الطبيعي، وفي الحالة الأخيرة، يكون الدماغ أقل تعرفًا على الخوف من بين المشاعر الأخرى، ومع ذلك، فقد أشارت دراسات جديدة مؤخرًا إلى إمكانية زيادة قدرة اللوزة الدماغية على التعرف على مشاعر الخوف والقلق من خلال التدريب المكتسب، وتستند رواية "لوز" إلى هذه الدراسات بجانب خيال المؤلفة.

- شخصية ب. ج. نولان هي شخصية خيالية.

- كتاب الأطفال المذكور في الفصل 57 هو كتاب برنارد موست "الديناصورات الأصغر"، واستندت الرواية في وصف أحجام الديناصورات إلى أصغر الديناصورات المذكورة في هذا الكتاب، لكن يُقال إن الحجم الفعلي للديناصورات قد يختلف باختلاف الدراسات.

مقدمة

مكتبة
t.me/soramnqraa

بداخلي لوز

وبداخلك أيضًا

وبداخل أكثر شخص تحبه

وأكثر شخص تكرهه

لا يستطيع أي منا الشعور به

لكننا نعرف فقط أنه موجود.

هذه الرواية باختصار عن وحش يقابل وحشًا آخر، وأنا أحد تلك الوحوش، لكني لا أنوي إخبارك هنا إن كانت النهاية ستكون مأساوية أم سعيدة.

أولًا: لأن القصة ستصبح مملة بمجرد حرق النهاية.

ثانيًا: عندما لا أحرق النهاية ستندمج أكثر مع الأحداث.

ثالثًا وأخيرًا: لا أنت ولا أنا ولا أي شخص يمكنه أن يجزم إن كانت القصة سعيدة أم مأساوية!

الجزء الأول

I

قُتل ستة أشخاص وأصيب واحد في ذلك اليوم، في البداية كانت أمي وجدتي، ثم طالب جامعي هرع لإيقاف القاتل، ثم رجلان في الخمسينيات من العمر، تلاهما شرطي كان في طليعة كتيبة الإنقاذ، وأخيرًا، القاتل، فقد اختار أن يكون هو نفسه آخر ضحايا هجومه الدموي، طعن نفسه في صدره بقوة ومات مثل معظم الضحايا الآخرين قبل وصول سيارة الإسعاف، كنت أقف وأشاهد كل هذا بأم عيني، بوجه جامد وعيون فارغة من أي تعبير كالعادة.

2

وقع الحادث الأول عندما كنت في السادسة من عمري، كانت الأعراض موجودة بالفعل منذ وقت طويل لكنها لم تظهر حتى ذلك الوقت، لم تأت أمي لاصطحابي من الروضة في ذلك اليوم، واكتشفت لاحقًا أنها ذهبت للقاء والدي بعد انقطاع طويل، أخبرته أنها لا تقصد نسيانه أو ترغب في مواعدة شخص جديد، لكنها فقط ستمضي قدمًا وتسمح له أخيرًا بالرحيل، قالت له كل هذا وهي تمسح شاهد ضريحه الباهت، وفي تلك اللحظة انتهى حب والدتي للأبد، وأنا الضيف الثقيل غير المرغوب فيه، ونتاج هذا الحب، كنت قد نُسيت تمامًا.

بعد رحيل جميع الأطفال، غادرت الروضة على مهل بمفردي، كان كل ما أتذكره عن بيتي كطفل يبلغ من العمر ست سنوات، هو أنه موجود بمكان ما وراء جسر، صعدت الجسر ونظرت أسفل السور، كانت السيارات تمر من تحتي، وذكرني ذلك بمشهد رأيته في مكان ما، جمعت أكبر قدر من اللعاب في فمي وبصقت على السيارات بالأسفل، تبخر بصاقي واختفى في الهواء قبل أن يلامس الأرض بمسافة بعيدة، لكني ثبتُّ عيني على الطريق وواصلت البصق حتى شعرت بالدوار.

"ماذا تفعل؟ هذا مقرف!".

نظرت إلى الأعلى لأرى سيدة في منتصف العمر تمر من جانبي

وتحدق في وجهي، ثم واصلت السير في طريقها وتخطتني تمامًا مثلما تتخطاني السيارات بالأسفل، وبقيت وحدي مرة أخرى، كانت السلالم تنحدر من الجسر في جميع الاتجاهات ولم أكن أعرف أي اتجاه عليّ أن أسلك، وكان المشهد بالأسفل باردًا ورماديًّا، كما هي الحال يمينًا ويسارًا، أما بالأعلى فقد رفرف زوجان من الحمام فوق رأسي، فقررت أن أتبعهما.

عندما أدركت أنني أسير بالاتجاه الخطأ، كنت قد قطعت شوطًا طويلًا بالفعل، تذكرت الأغنية التي كنا نتعلمها في الروضة آن ذاك (إلى الأمام) أو كما تقول كلمات الأغنية: "الأرض كروية، امضِ قدمًا، ستصل في النهاية، يومًا ما، إلى البيت، إذا واصلت السير، بخطوات صغيرة مثابرة وشجاعة، إلى الأمام".

كان الطريق الرئيس يؤدي إلى زقاق ضيق تصطف على جانبيه منازل قديمة، ولم يكن المكان مأهولًا، كانت هناك فقط أرقام قرمزية عشوائية وكلمة "شاغر" منقوشة على الجدران الأسمنتية المتهالكة.

فجأة صرخ أحدهم بصوت منخفض، لم أكن متأكدًا إن كانت صرخة أو تأوهًا، فالصوت كان منخفضًا وقصيرًا، سرت باتجاه الصوت وكلما اقتربت من مصدره تحول لما يشبه صوت بذل المجهود، كان قادمًا من الزاوية، فاستدرت نحوه دون تردد.

كان هناك طفل ممدد على الأرض، كان صغيرًا ولم أستطع

تحديد عمره، لكنه أيضًا كان محاطًا بظلال سوداء طويلة مكومة فوقه، كان يتعرض للضرب، ولم يكن هو مصدر الصوت بل كانت الظلال الطويلة حوله، كانوا يركلونه ويبصقون عليه، وعرفت لاحقًا أنهم طلبة المرحلة الإعدادية، لكن في ذلك الوقت بدت تلك الظلال طويلة وضخمة مثل الكبار.

بدا وكأنه قد مضى وقت طويل على ضرب هذا الفتى، حتى إنه لم يعد قادرًا على المقاومة أو حتى التأوه، كان يُركل يمينًا ويسارًا كدُمية قماشية، ثم ضربه أحدهم في جانبه كضربة أخيرة ثم اختفوا، كان جسد الطفل كله ملطخًا بالدماء كما لو كان يرتدي معطفًا مغطى بطلاء أحمر، اقتربت من الطفل، بدا أكبر مني، ربما في الحادية عشرة أو الثانية عشرة من عمره، أي ضعف عمري تقريبًا، ومع ذلك، لم أفكر فيه على أنه يكبرني سنًّا فقد كان يبدو مجرد طفل، وظل صدره يعلو ويهبط سريعًا، وكانت أنفاسه قصيرة ومتلاحقة مثل جرو حديث الولادة، كان من الجلي أن حالته خطرة.

عدت إلى الزقاق، كانت لا يزال خاويًا تمامًا، فقط تلك الأرقام القرمزية على الحوائط الرمادية التي بغضتها عيني، تجولت لفترة طويلة حتى لاحظت أخيرًا متجرًا صغيرًا في إحدى الزوايا، فتحت الباب ودلفت: "عذرًا سيدي".

كان برنامج "سباق العائلة" يذاع على التلفاز، وكان صاحب المتجر يقهقه بشدة وهو يشاهد البرنامج حتى إنه لم يسمع

صوتي، كان على أحد اللاعبين في الحلقة استخدام سدادات أذن وتخمين الكلمات بالنظر إلى حركة فم الآخرين، كانت الكلمة التي يجب نقلها هي "ذعر"، لا أعرف لماذا أتذكر تلك الكلمة حتى الآن، لم أكن أعرف حتى ما الذي يعنيه الذعر حينها، على أي حال، استمرت اللاعبة الشابة في تخميناتها الخاطئة، مما أثار ضحك الجمهور وصاحب المتجر، وفي النهاية انتهى الوقت المحدد وخسر فريقها، صفع صاحب المتجر العجوز شفتيه آسفًا على حالهم، بينما كررت أنا ندائي:

"يا سيدي".

انتبه اخيرًا والتفت لي:

"نعم؟".

"هناك شخص ما يرقد أسفل الزقاق".

"حقًّا؟".

قالها بلامبالاة وجلس يشاهد الفريقين على شاشة التلفاز، وهما على وشك خوض جولة أخرى من اللعبة مقابل نقاط عالية يمكنها تغيير النتيجة، أجبت وأنا أعبث بعلب الكراميل المرصوصة بدقة على رف العرض:

"هو على وشك الموت".

"هل أنت جاد؟".

"نعم".

عندها فقط نظر إلي:

"إنك تروي قصة مخيفة للغاية بالكثير من رباطة الجأش، لا يمكنك الكذب في مثل تلك الأشياء يا بني".

صمت لوهلة محاولًا إيجاد كلمات لإقناعه، لكنني كنت أصغر من أن أمتلك هذه الحصيلة اللغوية، ومهما حاولت لم أستطع التفكير في أي شيء أكثر واقعية مما قلته للتو. فظللت أكرر ما قلته سابقًا.

"هو على وشك الموت".

مكتبة
t.me/soramnqraa

3

انتظرت نهاية البرنامج بينما كان صاحب المتجر يتصل بالشرطة، يئس العجوز وغادر عندما رآني أعبث بعلب الكراميل دون أن أشتري شيئًا، تباطأت الشرطة في الوصول لمكان الحادث، ولكن كل ما كنت أفكر فيه هو هذا الطفل الذي يرقد على الأرض الباردة، لا بد أنه يلفظ أنفاسه الأخيرة بالفعل.

والمشكلة هنا أنه كان ابن العجوز صاحب المتجر.

***

جلست على مقعد في مركز الشرطة أؤرجح ساقي التي لا تطول الأرض للأمام والخلف، حركة قدمي حاوطت جسدي ببعض الهواء البارد، كان الظلام قد حل بالفعل وغلبني النعاس، وبمجرد أن غفوت، دفعت والدتي باب قسم الشرطة، وما إن رأتني انتحبت وضربتني على رأسي بشدة، حتى قبل أن تتم فرحة لم الشمل، فُتح الباب مرة أخرى، ودخل العجوز والدموع تملأ عينيه ويسنده رجال الشرطة، كان وجهه مختلفًا تمامًا عما رأيته سابقًا وهو يشاهد التلفاز، جثا الرجل على ركبتيه وارتجف ولكم الأرض، ثم نهض فجأة وأشار إليّ وهو يصرخ، لم أستطع فهمه تمامًا لكنه قال شيئًا من هذا القبيل:

"لو كنت تحدثت بجدية قليلًا، لكنت أنقذته قبل فوات الأوان".

أمسكه رجل الشرطة قبل أن ينهار على الأرض مجددًا وقال له:

"وماذا يفقه طفل في الروضة؟".

لكنني كنت جادًّا طوال الوقت، لم أضحك ولم أبالغ ولو لمرة، فلم أفهم لماذا يوبخني صاحب المتجر، لكني كنت فقط في السادسة من عمري، ولم أمتلك حتى الكلمات اللازمة لطرح هذا السؤال، لذا التزمت الصمت، وعلا صوت أمي نيابة عني، وساد مركز الشرطة حالة من الفوضى بسبب الضجة بين والدين؛ أحدهما وجد ابنه والآخر فقده.

في تلك الليلة لعبت بالمكعبات كالمعتاد، وكونت شكل زرافة، أو

ربما لو لويت رقبته قليلًا للأسفل لأصبح فيلًا، شعرت بنظرات أمي تفحص كل جزء من جسدي، سألتني وهي تحدق فيّ:

"أكان الأمر مخيفًا".

أجبت:

"لا".

***

انتشرت قصة الحادثة كالنار في الهشيم، وكيف لم تتغير تعابير وجهي وأنا أشاهد طفلًا يتعرض للضرب حتى الموت، ومنذ ذلك الحين، أصبحت مخاوف أمي واقعًا يتحقق مرارًا وتكرارًا.

وساءت الأمور عندما بدأت المرحلة الابتدائية، يومًا ما كنت في طريق عودتي من المدرسة إلى المنزل، وتعثرت فتاة تمشي أمامي بحجر وسقطت، ولأنها كانت تسد طريقي ووجهها إلى السفل، أخذت أنظر إلى طوق الشعر المقلوب المتدلي من رأسها والمزين برسومات ميكي ماوس، وانتظرت أن تنهض، ولكنها لم تفعل وظلت تبكي في مكانها، حتى ظهرت والدتها فجأة وساعدتها على الوقوف، نظرت والدتها إليّ وهي تتمتم:

"أتشاهد صديقتك تقع هكذا ولا تسأل حتى إن كانت بخير؟ صدقت الإشاعات، أنت حقًا طفل غريب".

لم أستطع التفكير في أي شيء أقوله، لذلك لم أنطق، شعر الأطفال بشيء ما يحدث فتحلقوا حولنا، وصمَّ همسهم أذني، ربما كانوا يرددون ما قالته والدة الفتاة للتو، كان ذلك عندما أتت جدتي لإنقاذي، مثل امرأة خارقة ظهرت من العدم وأخذتني تحت ذراعها وقالت بصوت أجش:

"انتبهي لكلامك! تعثرت الفتاة ووقعت، لماذا تلومين طفلي على ذلك؟".

ولم تنس جدتي أن توبخ الأطفال أيضًا.

"على ماذا تضحكون أيها الأشقياء الصغار؟".

وعندما ابتعدنا، نظرت إلى جدتي التي كانت تعض على شفتيها:

"جدتي..لماذا يقول الناس إنني غريب؟".

"ربما لأنك مختلف، والناس لا يطيقون الاختلاف، يا وحشي الجميل!".

قالتها وعانقتني حتى كادت تكسر ضلوعي، اعتادت جدتي أن تناديني بالوحش، ولم يعنِ ذلك أمرًا سيئًا، على الأقل بالنسبة لها.

4

صراحة استغرق الأمر بعض الوقت لأفهم طبيعة اللقب الذي لقبتني به جدتي الحنون، فالوحوش التي أراها في الكتب لم تكن جميلة، بل إن الوحوش لا يمكن أن تكون بأي شكل جميلة، لكن لماذا تلقبني جدتي بالوحش الجميل؟ حتى بعد أن علمت أن هناك ما يدعى "مفارقة" وهي تعني الجمع بين المفاهيم المتناقضة، ما زلت أشعر بالارتباك لأنني لم أكن أعرف أي معنى قصدته جدتي أكثر، "وحش" أم "جميل"، على أي حال، قالت إنها تقول ذلك بدافع الحب، وأنا قررت أن أثق بها.

بكت أمي عندما أخبرتها جدتي عن حادثة فتاة ميكي ماوس:

"كنت أعلم أن هذا اليوم سيأتي... لكنني لم أتوقع أن يكون قريبًا هكذا..".

"فلتكفي عن هذا الهراء، إذا كنت تريدين النحيب فادخلي غرفتك وأغلقي الباب".

كان توبيخ جدتي المفاجئ كفيلًا بإيقاف بكاء أمي لوهلة، حدقت أمي في جدتي مرتبكة من انفعالها المفاجئ، ثم أجهشت بالبكاء بصوت أعلى، تذمرت جدتي ومصمصت شفتيها وهزت رأسها وتنهدت وعيناها مستقرتان على زاوية السقف، كان مشهدًا دراميًّا تقليديًّا بين أمي وجدتي.

كان هذا صحيحًا، طالما كانت أمي قلقة عليّ منذ سنين، فمنذ أن ولدت وحتى الآن كنت مختلفًا عن الأطفال الآخرين، وأي اختلاف..

لم أبتسم قط.

في البداية، كان تطوري بطيئًا بعض الشيء، لكن كتب التربية كانت تقول إن الأطفال عادة ما تبتسم بعد ثلاثة أيام من الولادة، عدت أمي الأيام على أصابعها، فكانت مئة يوم تقريبًا.

لم أبتسم قط، مثل أميرة خرافية لعنت بألا تبتسم، وفعلت أمي كل ما في وسعها مثل أمير يحاول الفوز بقلب الأميرة، صفقت بيديها واشترت خشخيشة ملونة، ورقصت رقصات مضحكة على أغاني الأطفال، وعندما أرهقت، خرجت إلى الشرفة ودخنت لفافة تبغ، كانت عادة بالكاد تمكنت من الإقلاع عنها بعد أن اكتشفت حملها بي، شاهدت ذات مرة مقطع فيديو التقطته أمي في تلك الفترة، كانت تتصبب عرقًا محاولة إضحاكي وكنت أنا أنظر إليها نظرة ثابتة وهادئة جدًّا لا تليق بطفل رضيع.

على كل، فشلت والدتي في إضحاكي، ولم يكن هناك الكثير ليقال في المستشفى، فنتيجة فحصي كرضيع جاءت كالتالي، طولي ووزني وتطور سلوكي طبيعي بالنسبة لعمري، فاعتبر الطبيب المحلي الأمر عاديًّا وقال لوالدتي: "الطفل ينعم بصحة جيدة، فلا داعي للقلق"، حاولت والدتي أيضًا أن تريح نفسها قائلة إنني كنت فظًا

قليلًا عن الأطفال الآخرين، ولكن بحلول عيد ميلادي الأول، حدث شيء يدعو للقلق حقًّا.

في ذلك اليوم، وضعت أمي غلاية حمراء مليئة بالماء الساخن على الطاولة، واستدارت لخلط الحليب المجفف فشددت الغلاية، سقطت الغلاية فورًا على الأرض وتناثر الماء الساخن في كل مكان، ما زالت لدي علامات حروق طفيفة تشبه الميدالية إثر الحادث، صرخت وبكيت كثيرًا، وظنت أمي أنني سأهاب غلايات الماء الحمراء للأبد كعادة معظم الأطفال، وهذا ما لم يحدث، لم أخف من الماء ولا من الغلايات، سواء كان الماء بداخلها باردًا أو ساخنًا، بل إنني كلما رأيت الغلاية الحمراء كنت أحاول إمساكها.

لم يكن هذا كل شيء، بل توالت الحوادث، كان هناك رجل عجوز يعيش بالطابق الأرضي ولديه كلب أسود دائمًا ما يقيده بعمود في الفناء، حدقت مباشرة في عيني الرجل في تحدٍّ ودون خوف، وعندما انشغلت أمي عني للحظة مددت يدي لألمس كلبه، فكشر الكلب عن أنيابه الحادة وأخذ ينبح، وحتى بعد أن رأيت ابن الجيران يُعقر وينزف من فعل الشيء ذاته، إلا أنني فعلته مرة تلو الأخرى وكان على والدتي التدخل لإنقاذ الموقف كل مرة.

بعد عدة حوادث مشابهة، شعرت أمي بالقلق من أن يكون معدل ذكائي منخفضًا، لكن لم يكن هناك دليل آخر يعزز هذه الفرضية، ومثل أي أم، حاولت إيجاد طريقة لتبرير شكوكها حول طفلها.

"هو فقط أكثر جرأة من الأطفال الآخرين".

وهكذا وصفتني في مذكراتها.

***

ومع ذلك، فإن قلق أي أم كان سيصل لذروته لو لم يبتسم طفلها بحلول عيد ميلاده الرابع، لذا أخذت أمي بيدي واصطحبتني إلى مستشفى أكبر، كان هذا اليوم هو أول ذاكرة تحفر في ذاكرتي، حتى لو كانت ضبابية إلا أنها تصبح جلية بين الحين والآخر.

كان هناك رجل يرتدي معطف مختبر أبيض يجلس أمامي، ويُريني ألعابًا مختلفة واحدة تلو الأخرى بابتسامة كبيرة على وجهه، يبدو أن بعض تلك الألعاب كان يهتز أيضًا، ثم نقر ركبتي بمطرقة صغيرة، فقفزت ساقي للأعلى رغمًا عني مثل الأرجوحة، وتارة يضع إصبعه تحت إبطي، فأضحك قليلًا لأنه يدغدغني، وتارة أخرى يعرض عليّ بعض الصور ويسألني عنها، ما زلت أتذكر إحدى الصور بوضوح.

"الطفل في هذه الصورة يبكي لأن والدته اختفت فجأة، ترى ما هو شعوره؟".

أجبت أنني لا أعرف، ونظرت لأمي التي ابتسمت لي وربتت على رأسي وأخذت تعض على شفتها السفلى.

***

بعد فترة، أخذتني أمي إلى مكان ما، وأخبرتني أننا ذاهبون في رحلة فضائية، لكن انتهى بنا الأمر في مستشفى آخر، سألتها لماذا أتينا إلى هنا وأنا لا أشتكي من أي علة، لكنها لم تجب، طلب مني الأطباء الاستلقاء على شيء بارد، وهذا الشيء سحبني داخل خزانة بيضاء، سمعت بداخلها صوت صفارة غريب، ثم انتهت رحلتي الفضائية المملة.

تغير المشهد مرة أخرى، ازداد فجأة عدد الرجال الذين يرتدون المعاطف البيضاء الطويلة، وقال أكبرهم إن الصورة الضبابية باللونين الأبيض والأسود كانت صورة لدماغي من الداخل، يا له من كاذب! هذا ليس شكلي رأسي على الإطلاق، لكن أمي أومأت برأسها وكأنها تصدق هذا الكذب البين، في كل مرة يفتح فيها هذا العجوز فمه، يدون الشباب من حوله ملاحظات، شعرت بالملل وأخذت أركل بقدمي مكتب الطبيب العجوز، وضعت أمي يدها على كتفي لتوقفني عن فعل هذا، فنظرت نحوها لأجد الدموع تنهمر على وجنتيها.

كانت الذكرى الوحيدة التي علقت في ذهني لهذا اليوم هي بكاء أمي المستمر، ظلت تبكي وتبكي وتبكي، وحتى عندما عدنا إلى غرفة الانتظار، كانت هناك حلقة رسوم متحركة بالتلفاز، لكني لم أستطع مشاهدتها بتركيز بسبب نحيب أمي، ظلت أمي تبطئ رغم هزيمة سيد الأكوان الشرير، وفي النهاية صاح الجد الغافي

في السرير المجاور لنا بغرفة الانتظار "كفى نحيبًا يا امرأة، لقد اكتفيت!" عندها فقط سكت صوت أمي، لكنها زمّت شفتيها فقط وأخذت ترتجف وتئن وصدرها يعلو ويهبط كبكاء فتيات المدرسة الإعدادية.

5

أطعمتني أمي الكثير من اللوز، لقد جربت جميع أنواع اللوز التي يتم استيرادها في كوريا، لوز من الولايات المتحدة وأستراليا والصين وروسيا، كان الصيني طعمه مر، أما الأسترالي كانت رائحته مثل التراب وطعمه حامض، وكان هناك لوز كوري أيضًا، لكن ظل المفضل لدي هو اللوز الأمريكي المستورد من كاليفورنيا، كان لونه بنيًّا وملمسه ناعم إثر تعرضه لأشعة الشمس الحارقة هناك، والآن سأخبركم بطريقتي الخاصة لأكله.

أولًا، تمسك بكيس اللوز وتتحسس الحبات بين يديك، يفضل أن تكون صلبة وصعبة الكسر، ثم تمزق الجزء العلوي من الكيس وتفتح السحاب، عليك أن تغلق عينك في هذه المرحلة، وتدس أنفك داخل الكيس وتتنفس ببطء، أحيانًا يجب أن تكتم نفسك قليلًا لتجتاح الرائحة كل حواسك، وأخيرًا عندما تشم رائحة اللوز عميقًا بالقدر الكافي، تأخذ حفنة وتضعها في فمك، قلبها قليلًا واشعر بملمسها والتعاريج الموجودة على سطح اللوزة بلسانك، لكن لا

تطيل في هذه المرحلة لأنه عندما يتشبع اللوز باللعاب يفقد مذاقه، كل هذه الخطوات مراحل تمهيدية للنهاية، فعليك أن تجد التوقيت المناسب بنفسك، وفي الطريق إلى ذروة المذاق عليك أن تتخيل اللوزة تكبر تدريجيًّا من حجم ظفر صغير إلى حجم حبة العنب ثم الكيوي، ثم البرتقال، ثم البطيخ، والآن عندما تكون اللوزة في حجم كرة الرجبي، إذًا فهو الوقت المناسب لمضغها، عندما تسحقها تحت ضروسك يغمر المذاق الطيب فمك وتذوب في أشعة شمس كاليفورنيا الدافئة.

لم يكن حبي للوز هو سبب تلك الطقوس، لكن لأن اللوز كان موجودًا على المائدة يوميًّا وفي الوجبات الثلاث، ولا مفر من أكله، لذلك ابتكرت طريقة مميزة لذلك، اعتقدت أمي أنه إذا أكلت الكثير من اللوز، فإن اللوزة داخل رأسي ستنمو، وكانت تلك واحدة من الآمال القليلة جدًّا التي تشبثت بها.

كل شخص لديه لوزتان في رأسه، مثبتتان بقوة في مكان مكين، بين الجزء الخلفي من الأذن ومؤخرة الرأس، يطلق عليهما "أميجدالا" أو اللوزات الدماغية وذلك لأنها في نفس حجم وشكل اللوز تمامًا.

عندما يتم تحفيزها بمحفز خارجي، ترسل هذه اللوزات إشارات إلى عقلك، وتبعًا لطبيعة الحافز فستشعر بالخوف أو الغضب أو الفرح أو الحزن.

لكن لسبب أو لآخر يبدو أن اللوز في رأسي عطب، فلم يكن يرسل إشارات عند تحفيزه، ولذلك لا أعرف لماذا يضحك الناس ولماذا يبكون، والفرح والحزن والحب والخوف وكل هذه الأحاسيس كانت أفكارًا غامضة بالنسبة لي، وكلمتا "العاطفة" والتعاطف" مجرد حروف متشابكة بلا معنى.

6

استقر الأطباء على تشخيصي باللامفرداتية (ألكسيثيميا) أو بعبارة أخرى عدم القدرة على التعبير عن المشاعر، كنت ما زلت صغيرًا جدًّا وكانت أعراضي تختلف عن متلازمة إسبرجر، ولم تكن هناك أي أعراض أخرى تدل على إصابتي بالتوحد، كنت فقط لا أستطيع التعبير عن مشاعري، والأدهى من ذلك أنني لا أستطيع تحديد هذه المشاعر من الأساس، لم تكن لدي أي مشكلة في تكوين الجمل أو فهمها مثل الأشخاص المصابين بتلف في منطقتي بروكا وفيرنيكي، وهما مراكز تعلم واكتساب اللغة بالدماغ، لكن في حالتي لم أكن أشعر بالعواطف جيدًا، ولا أستطيع ترجمة مشاعر الناس أيضًا، وأخلط بين الألفاظ الدالة على المشاعر المختلفة، فأجمع الأطباء على أن ذلك يرجع إلى أن حجم اللوزة الدماغية في رأسي كان صغيرًا جدًّا، ولم يكن الاتصال بين الجهاز الحوفي في دماغي والفص الأمامي للمخ سلسًا.

كانت أحد أعراض صغر حجم اللوزة الدماغية هو عدم الشعور بالخوف، يعتقد الناس أنه من الرائع أن يكون المرء مقدامًا وشجاعًا، ولكن الخوف هو آلية دفاع غريزية ضرورية للبقاء على قيد الحياة، فعدم الخوف لا يعني الشجاعة، بل يعني أنك غبي بما يكفي لتقف ساكنًا أمام سيارة لتدهسك، ولكن حظي كان أسوأ، فبالإضافة إلى جهلي بالخوف، كان من الصعب على أيضًا تمييز المشاعر الأخرى، ولكن إذا نظرنا إلى الجانب المشرق، فإن ذكائي لم يتأثر بصغر حجم هذه اللوزة.

قال الأطباء إن لكل شخص دماغًا مختلفًا وفريدًا، لذلك يجب أن تظل حالتي تحت الملاحظة، وقدم بعضهم عروضًا مغرية للغاية، قائلين إنني قد ألعب دورًا كبيرًا في كشف أسرار الدماغ التي لم يتم الكشف عنها بعد، طلب مني الباحثون في المستشفيات الجامعية المشاركة في مشاريع طويلة الأمد، مثل إجراء تجارب سريرية مختلفة ونشر نتائجها في المجلات الطبية، كما سيكون هناك تعويض مادي مقابل هذه المشاركات، وبناء على نتائج البحث يمكن تسمية هذا الجزء من الدماغ على اسمي مثل منطقة بروكا وفرنيكي، فيطلق على هذه البقعة اللوزية "منطقة سون يون جيه" لكن أمي كانت قد سئمت أفعال الأطباء بالفعل، ورفضت كل العروض رفضًا قاطعًا.

بادئ ذي بدء، كانت أمي تعلم أن بروكا وفرنيكي كانا أسماء علماء، وليسا مرضى، وذلك لأنها داومت على زيارة المكتبة المحلية

بمنطقتنا وقرأت كتبًا مختلفة عن الدماغ، كما لم يعجبها كيف نظر إليّ الأطباء كعينة بشرية مثيرة للاهتمام، وليس كإنسان، لذا يئست أمي مبكرًا جدًّا من قدرة الأطباء على علاجي، خاصة فيما يتعلق بالتجارب الغريبة أو إعطائي عقاقير غير مثبتة علميًّا ومراقبة ردود أفعالي والتباهي بالنتائج في المؤتمرات، كان هذا اعتقاد أمي على الأقل، ومثل العديد من الأمهات اللاتي يفرطن في حماية أطفالهن، تبنت أمي شعارًا مبتذلًا وغير مقنع ألا وهو: "أنا أدرى بحالة طفلي".

وفي آخر زيارة لي في المستشفى، بصقت أمي على حوض الزهور الذي أمام المبنى وقالت:

"هؤلاء الأفاقين لا يعرفون حتى ما بداخل أدمغتهم الملعونة".

كانت لأمي لحظات جموح كهذه.

7

لامت أمي الإجهاد الذي تعرضت له أثناء الحمل، وسيجارتين دخنتهما سرًّا، وبعض رشفات الجعة التي لم تستطع مقاومتها في الشهر الأخير، لكن حقيقةً كان من الجلي أن السبب في حالتي هو مجرد سوء حظ، ويبدو أن الحظ يلعب دورًا كبيرًا في خلق المشاكل حول العالم.

منذ أن اكتشفت أمي حالتي، أملت أن أنعم على الأقل بذاكرة قوية مثل حاسوب آلي كما يحدث في الأفلام، أو حس فني راق وموهبة فذة في الرسم، وهكذا يمكنني من الظهور على التلفاز، أو بيع لوحاتي السيريالية بعشرات ملايين وون، لكن لسوء الحظ أيضًا لم أكن عبقريًا.

بعد حادثة زميلتي ذات طوق شعر ميكي ماوس، بدأت أمي "تعليمًا" خاصًا بي، فافتقاري للمشاعر كان يشكل خطرًا كبيرًا عليّ وعلى مستقبلي علاوة على كونه مجرد شيء مؤسف.

وكان هذا التعليم مفيدًا، فمهما وبخني الناس ورمقوني بغضب، أو صرخوا وصاحوا، أو رفعوا حواجبهم تعجبًا.. كان من الصعب علي فهم السبب وراء تلك التعبيرات، كنت فقط أنظر لظواهر الأمور دون معرفة معناها الحقيقي.

كتبت أمي بعض الجمل على ملصقات ملونة، ثم ثبتتها على لوحة كبيرة وعلقتها على الحائط:

إذا اقتربت سيارة ← احمِ جسدك، أو اركض بعيدًا.

إذا اقترب منك جمع من الناس ← أفسح الطريق حتى لا تصطدم بهم.

إذا ابتسم لك شخص ← ابتسم بنفس الطريقة.

ودونت ملاحظة في الأسفل:

* ملاحظة: بالنسبة لتعبيرات الوجه، حاول تقليد تعابير الشخص الذي يتحدث معك.

لكنها كانت جملة معقدة على طفل مثلي في الثامنة من عمره.

كانت الأمثلة على اللوحة لا حصر لها، بينما كان الأطفال في سني يحفظون جداول الضرب، كنت أنا أحفظ أمثلة أمي كما لو كنت أحفظ التسلسل الزمني للممالك القديمة، وحاولت مطابقة كل فعل برد فعله المناسب والصحيح، وكانت أمي تختبرني طوال الوقت، فحفظت القواعد "الغريزية" حفظًا، بينما اكتسبها الأشخاص العاديون دون أدنى صعوبة، مصمصت جدتي شفتيها وظنت أن هذا التعليم الخاص لا طائل منه ومجرد حشو فارغ، ورغم ذلك استمرت في قص أشكال الأسهم للصقها على اللوحة، فتلك كانت مهمة جدتي الوحيدة.

8

بعد سنوات، كبر رأسي، لكن حجم اللوز في دماغي ظل كما هو، وبما أن علاقاتي بالناس أصبحت أكثر تعقيدًا وزادت المتغيرات التي يصعب التعامل معها بملاحظات أمي فقط، أصبحت أكثر

جذبًا للانتباه، وفي اليوم الأول من عامي الدراسي الجديد كنت قد صنفت بالفعل بأنني الطفل الغريب، وسخر مني الجميع وتعرضوا لي في الباحة الخلفية للمدرسة، ودائمًا ما كان يسألني الأطفال أسئلة غريبة، وكنت أجيبهم إجابات مباشرة دون أن أعرف كيف أكذب ولا سبب ضحكهم الشديد على إجاباتي، ودون أن أقصد أصبحت أغرز خنجرًا في قلب أمي يومًا بعد يوم، لكنها لم تستسلم.

"لا تكن مختلفًا، هذا كل ما يتطلبه الأمر".

ما عنته أمي أنه لا يجب السماح لهم بمعرفة أنني مختلف، فإذا اكتشفوا الحقيقة، أصبح هدفًا لمضايقاتهم، ولهذا لم يعد تعلم الركض عند اقتراب السيارة كافيًا، فقد حان الوقت لإتقان مهارات تمثيلية استثنائية لإخفاء اختلافي، لم تملّ أمي من استخدام مخيلتها في اختلاق مواقف ومحادثات مختلفة كمؤلف مسرحي بارع، وكان عليّ معرفة المعنى الحقيقي وراء الكلام، والنوايا المقصودة التي يجب أن تنعكس على حديثي.

على سبيل المثال، عندما يريني صديق أدواته المدرسية أو ألعابه الجديدة، هو لا يقصد المشاركة فقط، بل ما يقصده فعلًا هو "التفاخر" لذلك أخبرتني أمي أن الرد المناسب لهذا الموقف هو "يا لحظك!" وذلك لأن هذا الرد يعكس الغيرة والحسد.

كذلك عندما يثني عليّ أحدهم بعبارات إيجابية مثل قول إنني

وسيم أو إنني أحسنت صنعًا -وبالطبع كان عليّ حفظ تلك العبارات "الإيجابية" بشكل منفصل- كان عليّ الرد على النحو التالي "شكرًا لك" أو "على الرحب".

وبالنسبة لأمي، "شكرًا" هي الإجابة المنطقية، ولكن "على الرحب" أكثر أريحية وتجعلني أبدو أكثر انفتاحًا، بالطبع اخترت دائمًا الإجابات الأبسط.

9

لجأت أمي لطبع رموز الهانجا الصينية[1] التي ترمز للعاطفة من الإنترنت بسبب خطها السيئ، مثل الغضب، الفرح، الحزن، الحب، الكراهية، الرغبة، كلٌ على ورقة كبيرة وعلى حدة، مصمصت جدتي شفتيها وأخبرت أمي أن تلك الأشياء يجب أن تتم بجهد وعناية، ثم أخذت جدتي تنقش الرموز الصينية كما لو كانت ترسم، على الرغم من أنها لا تجيد قراءة الهانجا، أخذت أمي الرسومات من جدتي وزينت بها جدران المنزل كتمائم وتعاويذ الحظ.

كنت كلما ارتديت حذائي، ابتسم لي رمز السعادة من أعلى رف

1- الهانجا: وهو لفظ كوري يرمز لنظام الكتابة الذي يتكون من الرموز الصينية. والتي كانت تستخدم للكتابة قديمًا في كوريا. ومع اختراع الأبجدية الكورية تم دمجها في اللغة الكورية. وما زالت تستخدم حتى الآن. (المترجمة)

الأحذية، وكلما فتحت الثلاجة رأيت رمز الحب، وقبل النوم يطل عليّ رمز الفرح، وضعت أمي الرموز عشوائيًا في كل أرجاء المنزل، ولأن أمي كانت تؤمن بالخرافات، لصقت كل الرموز السلبية مثل الغضب والحزن والكراهية على جدران الحمام، وبمرور الوقت وبفعل رطوبة الحمام تجعدت تلك الأوراق وبهتت وتلاشت رموزها، لذا كانت جدتي تعيد كتابتها حتى حفظتها عن ظهر قلب وسارت تنقشها بخط منمق وجميل.

حتى إن أمي ابتكرت لعبة "فرح، حزن، أم خجل"، حيث تفتعل أمي موقفًا ما، وعليّ أن أخمن العاطفة المناسبة له، مثلًا بماذا أشعر عندما يقدم لي شخص طعامًا لذيذًا؟ الجواب هو الفرح والامتنان، أما عندما يؤذيني أحدهم؟ الجواب هو الغضب، وهكذا.

ذات مرة سألتني أمي عما يجب أن أشعر به إذا قدم لي أحدهم وجبة سيئة، كان ذلك سؤالًا مراوغًا، احترت لوهلة قبل أن تلقنني أمي الإجابة، قالت إنها قد تشعر بالغضب لأن الطعام ليس لذيذًا. وقد رأيتها بالفعل تنتقد المطاعم أحيانًا عندما يكون مذاق الطعام سيئًا، ومع ذلك، قد يكون بعض الناس سعداء أو ممتنين حتى لو لم يكن الطعام لذيذًا، تذكرت أيضًا أنه كلما تذمرت أمي من مذاق الطعام بالمنزل وبختها جدتي لتقدر نعمة الطعام أيًا كان.

مرت الأيام وأصبح عمري مكونًا من رقمين، لم تستطع والدتي في الكثير من الأحيان الإجابة عن أسئلتي على الفور، أو كانت تأتي إجابتها غامضة وغير مفهومة، وفي النهاية طلبت مني أن أحفظ

فقط المفاهيم الأساسية للعواطف الرئيسة، السعادة والحزن والخجل.

"لست بحاجة إلى الخوض في تفاصيل معقدة، لكن لو عرفت المشاعر الرئيسة ستبدو طبيعيًّا، حتى لو كنت باردًا أو هادئ الأعصاب قليلًا".

في الواقع، لم يكن لدي أدنى اهتمام سواء كنت طبيعيًّا أم لا، كان الفرق بالنسبة لي ضئيلًا جدًّا كالفروق الدقيقة للمترادفات التي لا أميزها.

10

بفضل جهود أمي الدؤوبة والتدريب اليومي والإلزامي، تعلمت تدريجيًّا أن أتعايش في المدرسة دون الكثير من المتاعب، ومنذ أن اجتزت الصف الرابع الابتدائي، أمكنني الاندماج في مجموعات بشكل طبيعي، وهكذا تحققت رغبة أمي أخيرًا في ألا أكون منبوذًا، كان الصمت كافيًا في معظم الأحيان، فقد اكتشفت أنني إذا التزمت الصمت في موضع الغضب، أبدو صبورًا، وإذا التزمت الصمت في موضع الضحك، أبدو وقورًا، وإذا التزمت الصمت في موضع البكاء، أبدو قويًّا، كان الصمت حقًّا من ذهب، ورغم ذلك لازمت قول

"شكرًا" و"آسف"، وكانت تلك هي الكلمات السحرية التي ساعدتني في تجاوز أصعب المواقف، وكان هذا هو الجزء السهل

في حياتي، بنفس سهولة رد مئتي وون كباقٍ من مبلغ ألف وون.

أما الجزء الأصعب كان عندما أضطر لدفع الألف وون أولًا، أي المبادرة بالتعبير عما أريده وما يعجبني، وتكمن صعوبة الأمر في الحاجة لطاقة إضافية، كان الأمر أشبه بالدفع المسبق لشيء لا أرغب في شرائه ولا أعرف حتى تكلفته، وكان ذلك مرهقًا كمحاولة خلق أمواج عاتية على سطح بحيرة راكدة.

على سبيل المثال، إذا حدث ووقفت أمام حلوى بالشيكولاتة حتى ولو لم أرغب فيها، كان عليّ أن أجبر نفسي على الابتسام قائلًا: "تبدو لذيذة، هل يمكنني الحصول على واحدة؟"، أو عندما يخذلني شخص أو يخلف وعده معي، كان عليّ أن أحكم قبضتي وأتظاهر بالبكاء قائلًا: "كيف تفعل هذا بي؟".

كانت تلك المواقف هي الأصعب، وكنت أفضل ألا أتورط بها على الإطلاق، لكن أمي أخبرتني أنني لو ظللت هادئًا تمامًا مثل بحيرة راكدة، يمكن وصمي بأنني غريب الأطوار، لذلك كان عليّ أن أفتعل تلك المشاعر من حين لآخر، قالت أمي:

"المرء على ما تعلم، يمكنك فعل ذلك".

طالما قالت أمي إنها تفعل كل شيء من أجلي، ووصفت ذلك بـ"الحب"، لكن من وجهة نظري كان كل هذا صراعًا حتى لا ينفطر قلبها، فبالنظر لأفعال أمي، كان الحب يعني التذمر على

أشياء بسيطة بعيون دامعة، وإزعاجي بما يجب أن أفعل في هذا الموقف وذاك، لو كان هذا هو الحب، فأفضل ألا أحب أو يحبني أحد، بالطبع لم أفصح بذلك لأني حفظت إحدى قواعد أمي عن ظهر قلب، وهي "الصدق الشديد قد يؤذي مشاعر الآخرين".

11

أما جدتي، فكانت لدينا "كيمياء أفضل" من علاقتها بأمي بحسب تعبيرها، حقيقة لم تتشابه جدتي وأمي لا في المظهر ولا الشخصية ولا حتى الذوق، باستثناء أن كلتيهما كانتا تحبان حلوى البرقوق.

أخبرتني جدتي أن أول شيء سرقته والدتي من المتجر عندما كانت طفلة كانت حلوى بنكهة البرقوق، قالت جدتي:

"كانت تلك أول مرة..".

فسرعان ما صرخت أمي:

"وآخر مرة".

ضحكت جدتي ضحكة مكتومة وأضافت:

"لحسن الحظ لم يصبح لص الإبرة لص بقرة!".

كان سبب حبهما لحلوى البرقوق غريبًا بعض الشيء، قالتا إن

مذاقها حلو لكنه مغلف بنكهة الدم، كانت حلوى البرقوق بيضاء ولامعة لمعانًا غريبًا وبها شريط أحمر، وكان تناولها يمثل لحظة نشوة صغيرة وثمينة لأمي وجدتي، وغالبًا ما كان الشريط الأحمر يجرح لسانيهما أثناء ذوبان الحلوى في فيهما، اعتادت جدتي أن تقول بابتسامة عريضة وكيس كبير من الحلوى بين ذراعيها، بينما تبحث أمي عن مرهم للسان:

"المثير في الأمر أن طعم الدم المالح يتماشى تمامًا مع حلاوة البرقوق".

تعجبت كيف لم أملّ هذه القصة مهما سمعتها من جدتي مرارًا وتكرارًا.

***

ظهرت جدتي في حياتي فجأة، ذلك عندما كانت أمي بمفردها وشعرت بالتعب فطلبت منها المساعدة، قبل ذلك كانت علاقتهما قد انقطعت لما يقرب من سبع سنوات بسبب شخص دخيل على الأسرة، والذي أصبح فيما بعد والدي.

فقدت جدتي زوجها عندما كانت حاملًا بأمي، ومنذ ذلك الحين كرست حياتها حتى لا تشعر ابنتها باليتم، وقد ضحت بشبابها من أجل أمي، ولحسن الحظ اجتهدت أمي في الدراسة رغم عدم تفوقها، ونجحت في الالتحاق بجامعة البنات بسيول، وبذلت

جدتي جهدًا لتربي ابنتها المصونة لكيلا تقع في حب "نذل"، وكان هذا اللقب الذي أطلقته جدتي على أبي، كان أبي يبيع إكسسوارات على أرصفة الجامعة، وتعهد النذل لأمي بالحب الأبدي مقدمًا لها خاتمًا رخيصًا كان غالبًا من أحد إكسسوراته الرديئة، قالت جدتي إن هذه الزيجة لن تتم إلا على جثتها، بينما رفضت أمي أن يتحكم أحد بحبها سواء بالموافقة أو الرفض، فقوبلت بصفعة على وجهها.

بل هددت أمي جدتي بأنها ستحمل إذا واصلت الأخيرة تعنتها، ونفذت تهديدها بالفعل بعد شهر بالضبط، فقالت جدتي كلمتها الأخيرة بأنها لا تريد رؤية أمي ثانية، وهكذا تركت أمي المنزل، وانقطعت الصلة بينهما، أو هكذا ظننا.

لم أر والدي قط، رأيته فقط في الصور بضع مرات، كنت لا أزال في رحم أمي عندما اصطدم سائق دراجة نارية مخمور بركن أبي على الرصيف، ليتوفى أبي على الفور، تاركًا وراءه إكسسوارات ملونة ورخيصة فقط، لم تستطع أمي حينها الاتصال بجدتي، لم ترغب في ترك المنزل تمسكًا بحبها ثم تعود إليه بكل هذه المآسي، وهكذا مرت سبع سنوات، حاولت أمي خلالها تدبر أمرها، وصمدت كثيرًا حتى أدركت أن كل هذا الصمود لا طائل منه، وأصبحت على شفا الانهيار، وقررت أخيرًا أنها لا تستطيع تحمل عبئي بمفردها.

12

التقيت بجدتي لأول مرة في مطعم ماكدونالدز، طلبت أمي حينها وجبتين من البرجر الذي نادرًا ما كانت تطلبه، ولم تمسه على الإطلاق، لم تفارق عينها المدخل، وكلما دخل أحدهم اتسعت حدقتها وانتصبت قامتها، ثم ارتخى جسدها مجددًا، عندما سألتها لاحقًا عن ذلك، قالت إنها إحدى الطرق التي يتفاعل بها الجسد عندما يشعر بالخوف والراحة في الوقت نفسه.

أخيرًا، عندما سئمت أمي الانتظار واستعدت للخروج، فُتح الباب فهب الريح بالمكان، ورفعت رأسي لأرى امرأة عجوزًا عريضة المنكبين ومنتصبة القامة، كانت ترتدي فوق شعرها الرمادي قبعة أرجوانية مزينة بالريش، فبدت مثل روبن هود في الحكايات الخرافية، وكانت هذه هي جدتي.

كانت جدتي عملاقة، لا يسعني التفكير في كلمة أخرى لوصفها، ربما لو حاولت، فيمكنني القول إن جدتي كانت مثل شجرة بلوط ضخمة لا تذبل أبدًا، وكان جسدها وصوتها وحتى ظلها هائلًا، وخاصة يدها، كانت غليظة مثل يد رجل قوي، جلست أمامي، وعقدت ذراعيها وزمت فمها، نظرت أمي للأسفل وتمتمت ببعض الكلمات، فأسكتتها جدتي بصوت منخفض وغليظ

"تناولا طعامكما أولًا".

لم يكن أمام أمي خيار سوى دفع البرجر البارد في فمها، استمر الصمت طويلًا حتى بعد أن أكلت أمي آخر قطعة من البطاطس المقلية، انتظرت ما سيحدث وأنا ألتقط فتات البطاطس المقلية المبعثرة من على الصينية البلاستيكية بنية اللون وألعق أطراف أصابعي، عضت أمي شفتيها ونظرت إلى حذائها أمام ذراعي الجدة المطويتين، وعندما لم يتبق شيء حرفيًّا على الصينية، أمسكت والدتي بكتفي بكلتا يديها وقالت بصوت خافت كطنين البعوض:

"هذا هو".

أخذت جدتي نفسًا عميقًا، وانحنت إلى الوراء وتنهدت عاليًا بصوت غريب، عندما سألتها لاحقًا عما عنت بهذا الصوت أخبرتي أنه شيء مثل "كان يمكن أن تنعم بحياة أفضل أيها الصغير المسكين"، صاحت جدتي في وسط المطعم حتى تردد صدى صوتها في أرجاء المكان "عظيم!".

التفتت الناس إلينا وبدأت أمي تبكي، أخبرت أمي جدتي بالعاصفة التي قلبت حياتها رأسًا على عقب من البداية إلى النهاية، وشفتاها بالكاد منفرجتان، بدا الأمر كأنه مزيج من النحيب والتنهد ممزوج بأنين خافت، لكن جدتي تمكنت من فهم كل ما قالته أمي، أرخت جدتي ذراعيها أخيرًا ووضعت يديها على ركبتيها، كما هدأ وهج وجنتيها قليلًا، وبينما أخذت أمي تصفني، بدأ تعبير جدتي يتحول تدريجيًّا لنفس تعبير أمي، وبعدما أنهت أمي حديثها، ظلت جدتي صامتة لوهلة ثم تغيرت تعابيرها فجأة

وقالت لي:

"إذا كان ما تقوله والدتك صحيحًا، فأنت بالتأكيد وحش".

فغرت أمي فاها ونظرت إلى جدتي، كانت جدتي تبتسم وقربت وجهها من وجهي، وارتفعت جوانب فمها بينما تدلت زوايا عينها حتى كادوا يلتقون في منتصف وجهها.

"ألطف وحش في العالم! هذا أنت يا صغيري".

ثم ربتت على رأسي بشدة حتى آلمتني، هكذا بدأت حياتنا نحن الثلاثة معًا.

13

بعدما انتقلنا للعيش مع جدتي، فتحت أمي متجرًا لبيع الكتب المستعملة، بالطبع لم يكن ذلك ليحدث لولا مساعدة جدتي، لكن جدتي التي -كما تقول أمي- تعشق الضغائن، لم تترك فرصة تفوت دون أن تتذمر من هذا الوضع.

"أضعت حياتي بأكملها في بيع التوكبوكي[2] لا تحمل تكاليف دراسة طفلتي الوحيدة، وها أنتم تبيعون الكتب المستعملة بدلًا من الدراسة، فتاة مدللة ومتعفنة".

2- توكبوكي: أكلة كورية شعبية عبارة عن كعك مصنوع من دقيق الأرز ويقدم مع صلصة حارة. (المترجمة)

كلمة "متعفنة" بالمعنى الحرفي هي تعبير فظيع، ولكن مع ذلك انهالت جدتي به على أمي ليلًا ونهارًا، حتى قالت أمي:

"أي أم تصف ابنتها بهذه الكلمة؟!".

"وما العيب في ذلك؟ كلنا سنموت ونتعفن يومًا ما، أنا لا أسبك، أنا فقط أقول الحقيقة".

لكن على كل حال، بسبب لم شملنا مع جدتي استطعنا أخيرًا الاستقرار والتوقف عن التنقل مرارًا وتكرارًا كما كانت حياتنا سابقًا، على الأقل لم تلُم جدتي أمي لعدم قيامها بعمل يدر ربحًا أكثر، كانت جدتي تحب الكتابة، لهذا ابتاعت لأمي في صغرها الكثير من الكتب رغم الضغوطات المادية التي كانت تمر بها، كانت تتوق لترى ابنتها فتاة قارئة ومطلعة، بل إنها أرادت أن تصبح أمي كاتبة، وبالتحديد أرادت لها أن تكون "فتاة عزباء منسوجة من كلمات" تكبر في وحدة وعزلة وهدوء، في الحقيقة تلك كانت الحياة التي تريدها الجدة لنفسها لو عاد بها الزمن، ولهذا السبب سمت أمي "جيون" أي "كاتبة"، كثيرًا ما تذمرت جدتي قائلة:

"كلما ناديتها جيون! جيون! تخيلتها تنسج من طرف قلمها أحرفًا وكلمات عذبة، جعلتها تقرأ الكثير من الكتب على أمل أن تصبح ذكية ومثقفة، وكل ما تعلمته من الكتب هو الوقوع في قصة حب متهورة مع رجل تافه وجاهل، يا ويلي..".

***

مع رواج المعاملات الإلكترونية لبيع السلع المستعملة على الإنترنت، لم يعتقد أحد أن مكتبة للكتب المستعملة ستصبح مشروعًا مربحًا، ومع ذلك صممت أمي على فكرتها حتى النهاية، كان قرارًا غير واقعي اتخذته أمي شديدة الواقعية، ربما لأنه أيضًا حلمها منذ سنين، كما حلمت يومًا ما إن تصبح كاتبة لتحقق أمنية جدتي، ولكنها لم تجرؤ على كتابة كل الندوب والجروح التي خلفتها لها الحياة، آمنت أن الكتابة تعني بيع حياتها كسلعة، ولم تكن تملك الثقة الكافية لفعل ذلك، ولا الشجاعة لتصبح كاتبة،عوضًا عن ذلك قررت بيع الكتب للآخرين، كتب تحمل بين طياتها عبق الزمن، وليست كالكتب الجديدة التي تورد باستمرار للمكتبات، كتب تستطيع أن تنتقي كل كتاب منها على حدة، لذلك اتجهت أمي لسوق الكتب المستعملة.

***

كانت المكتبة في زقاق بحي سويو-دونج، كان حيًا هادئًا، وما زال الكثيرون يسمونه باسمه القديم سويو-ري، تساءلت عمن سيأتي هنا لشراء الكتب المستعملة، لكن أمي كانت واثقة، وكان لديها ذوق في اختيار الكتب القديمة، وموهبة في انتقاء الكتب التي قد يفضلها هواة الكتب المستعملة بسعر مخفض، كان منزلنا متصلًا بالجزء الخلفي من المكتبة، وكان مكونًا من غرفتين للنوم، وغرفة معيشة، وحمام بلا مغطس، وكان يكفي أن يعيش به

ثلاثتنا، كنا نخرج من غرف نومنا إذا جاء أحد الزبائن وعندما نشعر بالملل نغلق المكتبة، وعلقنا لافتة براقة عليها عبارة "مكتبة كتب مستعملة" على النافذة، ولافتة أخرى باسم متجرنا "مكتبة جيون"، وفي الليلة التي سبقت افتتاح المتجر، نفضت أمي الغبار عن يدها وابتسمت قائلة:

"لا مزيد من التنقل، هذا هو بيتنا".

أصبح الحلم حقيقة، غالبًا ما تمتمت جدتي غير مصدقة، لأنه ولدهشتها، تمكنا من بيع ما يكفي من الكتب المستعملة لكسب قوت يومنا.

14

شعرت أيضًا بالراحة في مكتبتنا، قد يقول الآخرون إنه مكان "جيد" أو "محبب"، لكن التعبير الأفضل بالنسبة لي هو "الراحة"، أو بالأحرى أصبحت رائحة الكتب القديمة مألوفة، عندما شممتها لأول مرة شعرت وكأنني أعرفها من قبل ومعتاد عليها، كنت أفتح الكتب وأشم رائحتها كلما سنحت الفرصة، حتى إن جدتي وبختني على هذا الفعل الغريب.

أخذتني الكتب إلى أماكن لا يمكنني الذهاب إليها على الإطلاق، قرأت اعترافات أشخاص لا أستطيع مقابلتهم، ورأيت حيوات أناس لا أستطيع مصادفتهم، كل المشاعر التي لن أشعر بها أبدًا

والأحداث التي لا يمكن أن تحدث لي، كنت أطلع عليها سرًا في طيات هذه الكتب، كما كانت الكتب ذات طبيعة مختلفة تمامًا عن برامج التلفاز والأفلام.

كانت عوالم الأفلام والمسلسلات والرسوم المتحركة متكاملة وشديدة الدقة لدرجة أنه لم يعد لي مجال للتدخل في أحداثها، كانت القصص على الشاشة تجري أحداثها تمامًا كما صُورت أو رُسمت فقط، مثلًا إذا قرأت جملة "امرأة شقراء تجلس القرفصاء على وسادة بنية في منزل سداسي الشكل" في كتاب ما، فإن مخيلتي ستحدد كل شيء آخر، بينما تفرض علي الأفلام تفاصيل مثل لون بشرتها وتعبيرات وجهها وطول أظافرها، فلا يتبقى لي شيء غيره.

لكن الكتب كانت مختلفة، كان بها الكثير من الفجوات والمساحات، فراغات بين الكلمات وفراغات بين السطور، حيث يمكنني التقلص والجلوس، أو المشي بين السطور ونقش أفكاري على الهوامش، ولا يهم إن كنت أفهم معاني الكلمات، فمجرد فتح صفحة جديدة انتصار في حد ذاته.

سأظل أحبك

حتى لو لم أعرف أبدًا إن كان هذا الحب خطيئة، سمًّا، أم عسلًا

لن أوقف رحلة حبي.

لم يلمسني معنى تلك الكلمات على الإطلاق، لكن لا يهم، يكفي فقط أن أتابع الحروف بعيني، وأشم رائحة الكتاب وأتمعن في انحناءات كل حرف، كان الأمر مقدسًا لي تمامًا مثل أكل اللوز، وبمجرد أن أشعر أنني اكتفيت من النظر لإحدى الجمل، أشرع بقراءتها بصوت عال، سأظل، أحبك، حتى، لو، لم، أعرف، أبدًا، إن، كان، هذا، الحب، خطيئة، سمًّا، أم، عسلًا، لن، أو-قف، رح-لة، ح-بي.

كنت أمضغ الكلمات وأتذوقها وأبصقها بصوتي، وأظل أفعل هذا حتى أحفظها، وعندما أكرر الكلمة مرارًا وتكرارًا يتلاشى معناها رويدًا، وتتخطى حروف حروفًا وتتخطى كلمات أخرى، وتبدو اللغة شيئًا مبهمًا غريبًا لا معنى له، وعندها فقط أشعر أن كلمات مثل "الحب" و"الأبدية" والتي لم أفهمها قط، تبدو مألوفة وتعني شيئًا ما، أخبرت أمي مرة عن هذه اللعبة الممتعة فقالت:

"عندما نكرر الشيء كثيرًا يفقد معناه الأصلي، في البداية يبدو وكأنه يتطور ويتشكل من جديد، ومع مرور الوقت يتغير المعنى ويصبح باهتًا، حتى يتلاشى تمامًا في النهاية ويختفي ويتحول لفراغ أبيض".

الحب الحب الحب الحب الح-ب الحببببببببببببب بالحبالحبال...

الأبدية الأبدية الأبدية الأبدية الأبد-ية الابدييييييييييية تالابديتالابديتال...

وهكذا تختفي المعاني، تمامًا كما تبدو في رأسي الفارغ مثل لوحة بيضاء منذ البداية.

15

توالت الفصول من الربيع للشتاء لنعود للربيع وكأننا في دائرة مفرغة من التكرار، تشاجرت أمي وجدتي حول هذا وذاك، وضحكتا عاليًا في أغلب الأحيان، وهدأتا دائمًا مع حلول الغسق، عندما تصبغ الشمس السماء بصبغتها الأرجوانية، احتست جدتي كوبًا من السوجو[3] وتنهدت عاليًا في رضا، فردت أمي تكملة لتنهيدة جدتي "يا سلام!"، أخبرتني أمي لاحقًا أن هذا هو معنى السعادة.

كانت أمي محبوبة، حتى بعد أن انتقلنا للعيش مع جدتي ظلت لديها علاقات رومانسية، قالت جدتي إن سبب إعجاب الرجال بأمي رغم شخصيتها الغريبة هو أنها كانت تشبهها في أيام الصبا، تجهمت أمي كلما سمعت هذا لكنها كانت تعترف به في النهاية.

3- سوجو: مشروب كحولي كوري تقليدي يصنع من الأرز (المترجمة)

"نعم، كانت جدتك جميلة حقًّا".

لم أشعر أبدًا بالفضول تجاه علاقات أمي، كان نمط حبها ثابتًا، كان الرجال دائمًا هم من يقتربون أولًا، لكنها كانت دائمًا من تتمسك بهم حتى النهاية، قالت جدتي إن ما يريده الرجال هو مجرد علاقة عابرة، لكن ما تريده أمي هو والد لي.

كانت أمي نحيفة، ودائمًا ما تكحل عينيها بكحل بني، مما جعل عينها الواسعة الداكنة المستديرة تبدو أكبر حجمًا، وكان شعرها الأملس الطويل منسدلًا حتى خصرها وداكنًا مثل الأعشاب البحرية، وشفتاها دائمًا مزينتان باللون الأحمر كمصاصي الدماء، كنت أحيانًا أقلب في صورها القديمة واكتشفت أنها كانت تبدو بنفس الهيئة منذ مراهقتها وحتى الآن وهي أوشكت على الأربعين ربيعًا، ملابسها، تسريحة شعرها، حتى ملامح وجهها بقيت كما هي، كما لو أنها لا تكبر في السن باستثناء زيادة طولها، طالما كرهت أمي عندما توصمها جدتي بلفظة "متعفنة"، لذا اعطتها جدتي لقبًا جديدًا "المرأة التي لا تتعفن"، تجهمت أمي ثانية ولم يعجبها اللقب الجديد أيضًا.

ولم تكن جدتي قد طعنت في السن أيضًا، فلم يصبح شعرها الرمادي أكثر سوادًا ولا بياضًا، ولم يتأثر جسدها العملاق بكمية الكحول التي تشربها ولم تظهر عليها أي أعراض شيخوخة مع مرور السنين.

في كل انقلاب شتوي، كنا نصعد إلى السطح، ونثبت الكاميرا في قالب من الطوب، ونلتقط صورة عائلية، أمي مصاصة الدماء التي لا تتعفن وجدتي العملاقة، وأنا الوحيد الذي يكبر ويتغير.

ذاك العام، الذي حدث فيه كل شيء، كنا في فصل الشتاء قبل فترة وجيزة من أول تساقط للثلج، وجدت شيئًا غريبًا على وجه أمي، في البداية اعتقدت أن شعيرات قصيرة من شعرها علقت على جبينها، فمددت يدي لأزيحها، لكنها لم تكن شعيرات، كانت تجاعيد، لم أكن أعرف متى ظهرت تلك الخطوط الطويلة العميقة، حينها ولأول مرة أدركت أن أمي تتقدم في السن.

"حتى أنت لديك تجاعيد يا أمي".

ابتسمت أمي لكلماتي، مما جعل تجاعيدها تظهر جلية، حاولت أن أتخيلها عجوزًا لكني لم أستطع.

"لم يبقَ من العمر الآن سوى الكبر يا ولدي".

لسبب ما اختفت ابتسامتها فجأة، وحدقت لوهلة في الأفق ثم أغمضت عينيها ببطء، ترى ما الذي جال بذهنها؟ هل كانت تتخيل نفسها عجوزًا تضحك في أواخر عمرها؟ لكنها كانت مخطئة، لأن الحياة لم تمنحها فرصة العجز.

16

عندما كان جدتي تجلي الصحون أو تنظف الأرضية، كانت تدندن نغمات عشوائية، وتؤلف عليها كلماتها الخاصة.

الذرة في الصيف، والبطاطا في الشتاء
لذيذ وحلو، هلموا للأكل.

كان هذا ما اعتادت جدتي أن تبيعه للمارة في محطات الحافلات السريعة عندما كانت صغيرة، كانت تجلس في ركن من أركان مدخل المحطة، وكانت الرفاهية الوحيدة التي تقدر عليها الجدة ماديًا هي التجول حول المحطة ورؤية الشوارع بعد انتهاء العمل، كانت مفتونة بالزينة والزخارف التي تعلق في مولد بوذا وعيد الميلاد المجيد، كانت فوانيس اللوتس الفاتنة تعلق خارج المحطة بداية من الربيع وحتى بداية الصيف، وفي الشتاء، كانت أنوار عيد الميلاد الملونة والمبهجة تزين المكان، وعلى الرغم من أنه كان مكان عملها، إلا أنه كان عالمًا ساحرًا أسرها بجماله، لطلاما أرادت فانوس لوتس قديمًا أو شجرة عيد ميلاد بلاستيكية، لذلك كان أول ما فعلته عندما اشترت كشكًا صغيرًا لبيع التوكبوكي، هو تزيينه بفوانيس اللوتس وشجرة عيد الميلاد جنبًا إلى جنب.

حتى بعد أن أغلقت جدتي متجرها وفتحت والدتي مكتبة الكتب المستعملة، كانت إحدى قواعد جدتي الصارمة هي الاحتفال

المقدس بمولد بوذا وعيد الميلاد المجيد.

"لا عجب أن بوذا والسيد المسيح كانا قديسين، فقد حرصوا ألا تتداخل أعيادهم حتى نستمتع بالعيدين، لكن لو كان علي اختيار عيد واحد، بالطبع سيكون عشية عيد الميلاد".

قالتها جدتي وداعبت رأسي.

***

كانت عشية عيد الميلاد توافق عيد ميلادي، واعتدنا على الخروج لتناول الطعام اللذيذ معًا في ذلك اليوم احتفالاً بعيد ميلادي، حتى عشية عيد الميلاد في ذلك العام، كنا نستعد للخروج وكان الطقس باردًا ورطبًا، والسماء ملبدة بالغيوم والرياح الرطبة تصفع وجهي، حدثت نفسي وأنا أرتدي معطفي أنه لا داعي للخروج في هذا الطقس للاحتفال بمجرد عيد ميلاد آخر، وكنت جادًا في ذلك، ويا ليتني تمسكت برأيي.

17

كانت المدينة مزدحمة، وكان الاختلاف بين هذه الليلة ولياني عيد الميلاد السابقة أن الثلوج بدأت تهطل بعد صعودنا على متن الحافلة بفترة وجيزة، بدا أن الزحام المروري سيستمر للأبد،

وسمعت في المذياع أن هذا سيكون أول عيد ميلاد تزينه الثلوج منذ عقد، وأن الثلوج الكثيفة ستستمر حتى يوم غد، وعلى ما أتذكر كانت هذه هي المرة الأولى التي يهطل فيها الثلج في عيد ميلادي.

تراكمت الثلوج بسرعة مخيفة كما لو كانت ستبتلع المدينة بأكملها، وبدت المدينة رمادية وحالمة، ربما لذلك لم يشتكِ ركاب الحافلة من الزحام الشديد، حيث نظر الجميع من النوافذ والتقطوا صورًا بهواتفهم الذكية كما لو كانوا تحت تأثير سحر ما.

قالت جدتي: "سأطلب نينج-ميون[4]".

ثم صاحت أمي: "وفطائر اللحم المقدد الساخنة".

واضفت أنا: "وحساء ساخنًا".

نظرت أمي لجدتي وضحكتا، لا بد أنهما تذكرتا عندما سألتهما لماذا لا يأكل الناس النينج-ميون في الشتاء، ربما اعتقدتا أن السبب وراء السؤال أني كنت أشتهيها فحسب.

***

ترجلنا من الحافلة بعد أن غفوت عدة مرات، ومشينا طويلًا على ضفاف جدول تشونج جيه تشون، كان العالم من حولنا

4- نينج-ميون: طبق كوري مكون من شعرية (نودلز) ومكونات مختلفة من اللحم والخضروات ويقدم باردًا. (المترجمة)

ناصع البياض، نظرت إلى أعلى فرأيت ندفات الثلج تتساقط بسرعة هائلة، صاحت أمي ومدت لسانها لتتذوق الثلج مثل الأطفال، لم يعد مطعم النينج-ميون القديم الذي كانت تقصده جدتي موجودًا بالزقاق، كانت أطراف سراويلنا قد ابتلت وشعرنا بالبرد، فدلفنا إلى أول مطعم نينج-ميون وجدته أمي على خرائط هاتفها الذكي، كان مطعمًا من ضمن سلسلة مطاعم شهيرة محاطًا بالكثير من المقاهي.

كانت عبارة نينج-ميون مكتوبة بأحرف كبيرة على الحائط، وكانت الشعيرية مطهوة أكثر من اللازم فظلت تذوب بمجرد ملامستها للأسنان، لم يكن هذا كل شيء، بل كان أيضًا الحساء باردًا والفطائر محترقة، والنينج-ميون مذاقها مثل تفاح عفن، كانت تجربة سيئة جدًّا حتى لمن يتناول النينج-ميون لأول مرة، ومع ذلك، أنهت جدتي وأمي صحونهما، أحيانًا تكون الأجواء فاتحة للشهية أكثر من الطعام نفسه، وفي هذا اليوم وبسبب الأجواء المثلجة ظلت أمي وجدتي مبتسمتين طوال الوقت، أما أنا فوضعت مكعب ثلج في فمي وأخذت أقلبه بلساني، قالت جدتي: "عيد ميلاد سعيد".

وقالت أمي وهي تشد على يدي:

"شكرًا لأنك أتيت لهذا العالم".

عبارات مبتذلة، ولكن هناك أيامًا يجب أن نستخدم فيها مثل تلك العبارات.

***

هممنا بالمغادرة دون أن نقرر وجهتنا التالية، بينما كانت أمي وجدتي تدفعان الحساب، رأيت حلوى البرقوق في سلة على المنضدة، لكنه في الواقع كان غلافًا فارغًا تركه أحد ما هناك، قلبتها بين يدي فابتسم لي النادل وأخبرني أن أنتظر حتى يحضر لي البعض.

خرجت جدتي وأمي أولًا، كان الثلج ما زال يهطل بغزارة، قفزت أمي سعادة وفتحت ذراعيها لالتقاط ندفات الثلج، وضحكت جدتي بشدة حتى أمسكت معدتها، وابتسمت أمي لي بإشراق من النافذة، عاد النادل ومعه كيس كبير وجديد من الحلوى، فتح الكيس وملأ السلة الصغيرة بالحلوى التي بدت كالهدايا، سألته بقبضة مليئة بقطع الحلوى:

"يمكنني أخذ البعض اليس كذلك؟ إنها عشية عيد الميلاد".

تردد قليلًا قبل أن يومئ برأسه ويبتسم موافقًا.

خارج النافذة، رأيت أمي وجدتي لا تزالان مبتسمتين، ومر موكب طويل لجوقات مختلفة يرتدون قبعات القديس سانتا الحمراء ويرتلون ترانيم عيد الميلاد، بابا نويل، بابا نويل، بابا

نويل، اقتربت من الباب وضعت يدي في جيبي فشعرت بالحواف الحادة لأغلفة الحلوى.

في تلك اللحظة، صرخ العديد من الأشخاص في الوقت نفسه، وتوقفت الترانيم، وزاد الصراخ، وأصبح الموكب في حالة فوضى، وبدأ الناس يتراجعون ويغطون أفواههم بأيديهم في هول.

من الباب الزجاجي، رأيت رجلًا يلوح بشيء ما عاليًا، كان يرتدي حلة ويتجول قبل دخولنا إلى المطعم، وفي تناقض شديد مع مظهره كان الرجل ممسكًا بسكين في يد ومطرقة في الأخرى، أخذ يلوح بهما في عنف ومجون كما لو كان يطعن ندفات الثلج المتساقطة، اقترب من الجوقة حيث هم العديد بإخراج هواتفهم المحمولة سريعًا.

أدار الرجل رأسه، فوقعت عينه على جدتي وأمي، فغير اتجاهه إليهما، حاولت جدتي سحب أمي بعيدًا عن طريقه، لكن في اللحظة التالية حدث شيء لا يصدق، ضرب الرجل رأس أمي بالمطرقة مرة... اثنتين... ثلاث... أربع مرات.

انهارت أمي، وتناثر دمها على الأرض، دفعت الباب خارجًا، لكن جدتي صرخت وسدته بجسدها، ألقى الرجل بالمطرقة ولوح بالسكين في الهواء عدة مرات، ضربت الباب الزجاجي مرارًا لكن جدتي هزت رأسها وسدته بكل قوتها، وأخذت تكرر عبارة ما كثيرًا وهي على وشك البكاء، حينها اقترب الرجل من جدتي فاستدارت

لتواجهه وزأرت في وجهه، لمرة واحدة فقط، حجب ظهر جدتي العملاق عني الرؤية، وتناثر الدم ثانية، كل ما أمكنني فعله هو النظر إلى الباب الزجاجي فقط، الذي تلطخ بالدماء حتى أصبح لونه أحمر، لم يتدخل أحد أو يتقدم للمساعدة طوال هذه المدة، ورأيت فردين من شرطة مكافحة الشغب متسمرين في مكانهما، وقف الجميع يشاهدون كما لو كان الرجل يمثل مشهدًا مسرحيًّا ما مع جدتي، والجميع جمهور، بما فيهم أنا.

18

لم يكن لأي من الضحايا علاقة بالرجل، بل اتضح لاحقًا أنه "مواطن عادي" ونمطي للغاية يعيش حياة طبيعية، تخرج في الكلية بعد أربع سنوات ليعمل مندوب مبيعات في شركة صغيرة لمدة 14 عامًا، عانى الرجل من قرارات إعادة هيكلة مفاجئة بالشركة بسبب الركود الاقتصادي، ففتح مطعمًا للدجاج المقلي بمكافأة نهاية الخدمة، لكنه لم يصمد وأغلق أبوابه بعد أقل من عامين، فغرق في الديون وتركته عائلته، ولازم منزله لمدة ثلاث سنوات ونصف، مكث في شقته التي تقع في قبو أحد المنازل ولم يخرج سوى للتبضع من سوق قريب أو لزيارة المكتبة العامة من حين لآخر.

كانت معظم الكتب التي استعارها من المكتبة عن الفنون القتالية وآليات الدفاع عن النفس وكيفية استخدام الأسلحة البيضاء، لكن

الكتب التي عثر عليها في منزله كانت أغلبها كتب مساعدة ذاتية وتنمية بشرية وقواعد النجاح والعادات الإيجابية، ووُجد على مكتبه المتهالك رسالة انتحار مكتوبة بخط اليد بحروف كبيرة وغليظة.

من أراه يبتسم اليوم، سأخذه معي!

امتلأت مذكراته بدلائل كراهيته للعالم، كانت هناك أيضًا العديد من الجمل تدل على رغبته بالقتل كلما رأى أشخاصًا يتجولون بابتسامات في عالم لا يوجد فيه ما يسعدهم حقًا، مع ظهور تفاصيل حياته وخلفيته إلى العامة، تحول انتباه الجمهور إلى التحليل السوسيولوجي والاجتماعي لدوافعه لارتكاب الجريمة بدلًا من الجريمة ذاتها، ووجد العديد من الرجال في منتصف العمر أن حياتهم لا تختلف كثيرًا عن حياته، وأصبح الجمهور أكثر تعاطفًا مع الرجل وبدؤوا في التركيز على الحقائق المؤسفة للمجتمع الكوري التي أدت لمثل هذه الحادثة، ولم يهتم أحد بمن فقدوا أرواحهم في هذا اليوم.

تصدرت الحادثة عناوين الصحف لبعض الوقت، وكانت العناوين على شاكلة "من جعل هذا الرجل قاتلًا؟" و"كوريا، حيث تقتلك الابتسامة"، بعد ذلك بوقت قصير، عندما هدأت العاصفة، توقف الناس عن ذكر الحادثة، وكان ذلك بعد عشرة أيام فقط.

***

كانت أمي هي الناجية الوحيدة، غط دماغها في نوم عميق ولم يكن من المرجح أن تستيقظ ثانية، وحتى لو حدث ذلك، فلن تكون أمي التي أعرفها، أقام أهالي الضحايا جنازة موحدة، حيث بكى الجميع بتعبيرات مأساوية متوقعة تليق بمن رأوا ذويهم يقتلون بوحشية، وكنت الوحيد الذي لم يبكِ.

دخلت إحدى الشرطيات إلى قاعة العزاء، وبدأت تذرف الدموع وهي تنحني عزاءً لأهالي الضحايا، ثم أجهشت فجأة بالبكاء، رأيت لاحقًا ضابطًا يكبرها سنًّا يوبخها في نهاية الرواق، قائلًا إنها ستشهد مثل تلك الحوادث طوال الوقت أثناء عملها، وعليها أن تتعلم كيف تكون متبلدة المشاعر، ثم توقف الشرطي عن الكلام عندما التقت عينانا، انحنيت له تلقائيًّا وتجاوزته لأدخل دورة المياه.

سمعت همسات حولي طوال فترة العزاء التي استمرت ثلاثة أيام، كانت هناك تكهنات مختلفة حول تعبيراتي التي لا تتغير، قالوا إني ما زلت تحت تأثير الصدمة، وإنني مجرد مراهق صار يتيمًا الآن، لكن ربما لم أدرك الأمر بعد.

ربما توقعوا أن أكون حزينًا أو محبطًا أو وحيدًا وبائسًا، لكن كل ما دار بذهني لم يكن عواطف بل أسئلة..

ما الذي أضحك أمي وجدتي بشدة يومها؟

أين كنا سنذهب بعد خروجنا من المطعم لو لم يحدث كل هذا؟

لماذا فعل الرجل ذلك؟

لماذا لم يكسر مرآة أو تلفازًا بدلًا من قتل الناس؟

لماذا لم يتدخل أحدهم ويقدم المساعدة قبل فوات الأوان؟

لماذا؟!

***

كانت الأسئلة تتكرر آلاف المرات يوميًّا سؤالًا بعد الآخر حتى أصل للمربع صفر وأبدأ من جديد، لكني لم أصل لأي إجابة، حتى إنني طرحت أسئلتي هذه على رجال الشرطة والإخصائي النفسي، قالوا إن هؤلاء من يمكنني البوح لهم بأي شيء يدور بذهني، لكن لم يستطيع أحد منهم الإجابة أيضًا، معظمهم آثر الصمت، وحاول آخرون لكنهم فشلوا، وأدركت أن لا أحد يملك إجابات، فقد مات الرجل ومعه جدتي، وأمي ستظل في ثبات للأبد، لذا فقد ضاعت إجابات أسئلتي للأبد أيضًا، لذا كففت عن طرح الأسئلة.

أيقنت أن أمي وجدتي قد اختفتا تمامًا، جدتي اختفت روحًا وجسدًا، أما أمي فلم يتبقّ منها سوى قوقعة فارغة، ولا أحد يتذكرهما سواي، ولهذا السبب كان لا بد أن أبقى على قيد الحياة.

بعد العزاء، أي بعد ثمانية أيام بالضبط من عيد ميلادي، زاد

عمري سنة، وهكذا أصبحت في السابعة عشرة، كنت وحيدًا تمامًا الآن. وكل ما تبقى لي كان أكوامًا من الكتب المكدسة في مكتبة أمي، ولا شيء بخلاف ذلك، لم تعد هناك حاجة لفوانيس اللوتس وزينة عيد الميلاد، ولا لحفظ قوانين أمي للفرح والحزن والخجل، ولا الخروج في زحام المدينة لتناول الطعام في عيد ميلادي.

الجزء الثاني

19

داومت على زيارة المستشفى يوميًّا، كانت والدتي ما زالت تتنفس في ثبات عميق، وقد نُقلت بعد فترة وجيزة من غرفة العناية المركزة إلى جناح به ستة أسرة، كنت أجلس بجانبها كل يوم وأتمتع بأشعة الشمس الدافئة بالغرفة.

قال الطبيب ببرود ووضوح تام إنه لا أمل في إفاقتها، كانت فقط تتنفس، كانت الممرضة تبدل لها القسطرة البولية، وكنت أساعدها لنقلب جسد أمي من حين لآخر حتى لا تعاني من تقرحات الفراش، كان الأمر أشبه بتحريك صندوق ثقيل، طلب

مني الطبيب أن أخبره بقراري حيال حالتها الطبية، لم أعرف ماذا يقصد فسألته عما يعنيه، فقال إن علي أن أقرر إن كنت سأستمر في دفع تكاليف هذه المستشفى أو سأنقل والدتي لدار رعاية طبية أرخص في إحدى الضواحي.

لم تكن هناك مشكلة مادية في الوقت الحالي حيث كنت أعيش على الأموال التي استرددتها من شركة التأمين بعد وفاة جدتي، أدركت حينها أنه لا بد أن أمي أيضًا فعلت بعض الاستعدادات في حين تركوني وحدي في أي لحظة.

ذهبت لتسجيل وفاة جدتي في مركز الخدمة الاجتماعية، مصمص الموظفون شفاهم شفقةً وشاحوا بنظرهم بعيدا، وبعد أيام زارتني موظفة الخدمة الاجتماعية، نظرت إلى حال منزلنا وسألتني إن كنت أفضل الانتقال إلى أحد الملاجئ أو دور رعاية الشباب كوني مراهقًا، طلبت منها منحي بعض الوقت للتفكير، لم يعنِ ذلك أنني كنت سأفكر حقًا في الأمر، لكني فقط احتجت إلى بعض الوقت.

20

كان المنزل هادئًا، وكان صوت أنفاسي هو كل ما أسمعه طوال اليوم، ظلت الرموز التي نقشتها أمي وجدتي تزين الحوائط، ولكنها بلا معنى الآن حيث لا يفسرها لي أحد، كان من السهل

تخيل شكل حياتي إذا انتقلت إلى الملجأ، لم أكن مهتمًّا بذلك كثيرًا، لكن ما لم أستطع تخيله حقًّا هو أن أترك والدتي وحيدة.

فكرت في النصيحة التي كانت لتقدمها لي أمي، وبما أنها لا تستطيع التحدث الآن، حاولت البحث عن إشارة في استعادة نصائحها السابقة، كان أكثر ما تقوله هو "كن طبيعيًّا".

بحثت في تطبيقات الهاتف الذكي، فظهر لي تطبيق يسمى "دردش مع هاتفك"، نقرت عليه لتظهر نافذة دردشة صغيرة بها رمز تعبيري. كتبتُ:

"أهلًا".

وبمجرد أن ضغطت على زر الإرسال تلقيت ردًّا:

"أهلًا".

كتبتُ:

"كيف حالك؟".

فتلقيت الرد:

"بخير، وأنت؟".

"بخير".

"عظيم".

"ماذا يعني أن أكون طبيعيًا؟".

"أن تكون مثل الآخرين".

توقفت لوهلة، ثم كتبت رسالة طويلة هذه المرة:

"وماذا يعني أن أكون مثل الآخرين؟ ما دام كل الناس مختلفين، برأيك هو المعيار؟ ماذا كانت لتقول أمي؟".

"احضر للطاولة، فالطعام جاهز".

جاء هذا الرد سريعًا لينهي الحديث، حاولت أن أستمر قليلًا لكن لم تظهر أي ردود مفيدة، أدركت أنني لن أحصل على إجابات من هذا الشيء، لذا أغلقت التطبيق دون إرسال رسالة وداع.

كان لا يزال هناك بعض الوقت قبل أن يبدأ العام الدراسي، وكان يجب أن أتعود على العيش وحدي قبل بدايته.

***

أعدت فتح المكتبة بعد أسبوعين، تناثر الغبار بينما كنت أسير بين أرفف الكتب، وعرج بعض الزبائن من حين لآخر، وتلقيت بعض طلبات الشراء عبر الإنترنت، وتمكنت من شراء مجموعة قصص خيالية مستعملة كانت أمي ستشتريها بسعر جيد قبل الحادث، وعرضت المجموعة كاملة في أفضل مكان بالمتجر حتى يتسنى للجميع رؤيتها.

كان من المريح ألا أتفوه إلا ببعض الكلمات البسيطة فقط طوال اليوم، لم أكن مضطرًا للتفكير مليًّا ولا إجهاد عقلي في تكوين محادثة طويلة، كل ما يحتاج إليه الزبون هو نعم، ولا، وانتظر قليلًا، بخلاف ذلك كان عليّ فقط استخدام بطاقات الدفع وإعادة الباقي أو قول مرحبًا ووداعًا كآلة ناطقة.

في أحد الأيام، زارتني خالة كانت تنظم ناديًا للقراءة بالجوار، كانت عجوزًا اعتادت تجاذب أطراف الحديث مع جدتي سابقًا، سألتني:

"أتعمل بدوام جزئي أثناء العطلة، أين ذهبت جدتك؟".

"توفت".

فغرت العجوز فاها ثم عبست قائلة:

"أعلم أن النكات تبدو مضحكة لمن في سنك، لكنك تخطيت الحد، ماذا لو سمعتك جدتك؟".

"لقد توفت حقًّا".

عقدت العجوز ذراعيها ورفعت صوتها.

"حقًّا! إذًا متى وكيف حدث ذلك".

"لقد طعنت بسكين، عشية عيد الميلاد".

"يا إلهي..".

غطت العجوز فمها بيديها.

"لا بد أنها تلك المذبحة التي قرأنا عنها بالأخبار".

هرعت العجوز خارجًا كما لو كانت تتجنب التقاط مرض معدٍ مني، ناديتها:

"عذرًا لحظة، لم تدفعي الحساب".

احتقن وجه العجوز احمرارًا.

بعدما غادرت، فكرت لوهلة فيما كانت أمي لتريدني أن أقوله في هذا الموقف، فمن الواضح من ردة فعل الخالة أنني ارتكبت خطأ ما، مع ذلك لم أكن أعرف بالظبط فيم أخطأت وكيف أصلح هذا الخطأ؟ ربما كان علي إخبارها أن جدتي سافرت خارج البلاد وحسب، لكن حينها كانت ستطرح الخالة الفضولية المزيد من الأسئلة، أو ربما لم يجب علي أن آخذ نقودًا مقابل الكتب؟ هذا أيضًا لا معنى له، تذكرت مقولة "الصمت من ذهب" وقررت التمسك بها، وألا أرد على معظم الأسئلة، لكن كان معيار تحديد "المعظم" محير أيضًا.

مكتبة
t.me/soramnqraa

***

تبادر إلى ذهني فجأة كتاب قد قرأته لي جدتي -التي نادرًا ما تقرأ أي شيء سوى لافتات المتاجر- صدفة وأحبته، عثرت على

الكتاب الذي كان بحجم راحة اليد وبيع عام 1986 بـ2500 وون، كانت مجموعة قصص قصيرة للكاتبة هيون جين جون، وكانت من ضمنها القصة المفضلة لجدتي "المشرفة ب ورسائل الحب".

تحكي القصة عن "المشرفة ب" التي تسرق رسائل الحب من طالباتها ليلًا، وتتقمص أدوار الصبية والفتيات لتلعب مونولوجًا دراميًّا، رآها سرًّا ثلاث طالبات وكان لهن ردود فعل متباينة، سخرت إحداهن من المشرفة ومونولوجها المضحك، وشعرت الأخرى بالخوف من سلوكها الغريب، أما الثالثة فبكت شفقة على المشرفة التي تتوق للحب.

كانت القصة مختلفة عن دروس أمي التي دائمًا ما تعطيني إجابة واحدة صحيحة لكل موقف، ولكني أعتقد أن هذه النهاية لم تكن سيئة أيضًا، كان الأمر بمثابة رسالة لي، أنه لا توجد إجابة واحدة وثابتة في هذا العالم، ومجرد أن الآخرين يقولون أو يفعلون شيئًا ما فذلك لا يعني أن هذا الفعل هو الوحيد الصحيح والثابت، ونظرًا لأن الجميع مختلفون، فهذا يعني أن "ردود افعالي غير المألوفة" طبيعية ومنطقية لبعض الأشخاص.

ارتبكت أمي عندما أخبرتها بهذا، وبعد تفكير طويل أجابتني أخيرًا، أخبرتني أن رد الفعل المناسب لموقف "المشرفة ب" كان على الأرجح بكاء الطالبة الثالثة؛ لأن الإجابة الصحيحة عادة ما تأتي في النهاية، فقلت لها:

"لكن هناك أيضًا أسلوب كتابة يبدأ بجملة الموضوع، فربما كان رد فعل الطالبة الأولى هو الأصح".

حكّت أمي رأسها في حيرة، فسألتُ مجددًا دون استسلام:

"هل كنت لتبكين على مونولوج المشرفة ب يا أمي".

تسللت جدتي إلى الغرفة وقالت:

"إذا كانت أمك نائمة فلن تستيقظ حتى لو حملها أحدهم على ظهره وغادر.. ستكون أمك إحدى تلك الفتيات النائمات في خلفية القصة".

سمعت صوت ضحكاتها بجانبي مباشرة.

***

كنت أقرأ عندما رأيت فجأة ظلًّا يسقط على صفحات الكتاب، رفعت عيني لأرى رجلًا في منتصف العمر يقف أمامي ويبدو شكله مألوفًا، في اللحظة التالية اختفى تاركًا ملاحظة على المنضدة، طالبًا أن ألحق به للدور الثاني.

21

كانت المكتبة في الطابق الأول من مبنى منخفض مكون من

طابقين، وفي الطابق الثاني كان هناك مخبز، ولم تكن المخابز عادة تُفتتح في الطوابق العليا، وما زاد الأمر سوءًا هي اللافتة المتهالكة التي كتب عليها (مخبوزات) فقط دون اسم مميز للمخبز، عندما رأتها جدتي لأول مرة قالت "لا تبدو مخبوزاتهم لذيذة"، لا أعرف كيف استنتجت ذلك بمجرد النظر إلى اللافتة.

على أي حال، كان المخبز يبيع مخبوزات جومبو[5] وكعك الحليب وكعك القشدة، ولسبب ما كان يغلق أبوابه في الساعة الرابعة بالضبط، لكن يبدو أنه كان جيدًا؛ لأن الزبائن كانت تصطف لشراء مخبوزاتهم حتى يصل الصف للطابق الأول، وبفضل ذلك كانت الزبائن في نهاية الصف يلقون نظرة على كتبنا.

كانت أمي تبتاع المخبوزات من هناك في بعض الأحيان، نقش على الكيس البلاستيكي "مخبز شيم جاي يونج"، وكان هذا هو اسم صاحب المخبز، لكن أمي عادة ما كانت تناديه دكتور شيم، ولم تعد جدتي تشكو من سوء المخبوزات بعدما تذوقتها، أما بالنسبة لي كانت لا بأس بها، مثلها مثل أي خبز آخر، وكانت هذه هي المرة الأولى التي أصعد فيها للطابق الثاني.

نصحني دكتور شيم بتناول كعك القشدة، وعندما قضمت أول قضمة، سالت منها قشدة لزجة بلون أصفر، كان دكتور شيم في أوائل الخمسينيات من عمره، وقد أقمر ليله فبدا في الستينيات.

5- خبز جومبو: خبز حلو أو كعكة مشهورة بكوريا. مصنوعة من الدقيق والسكر والبيض والعجين وتُخبز بسطح مقرمش وهش ومرتفع. (المترجمة)

"هل أعجبك مذاقها؟".

"لها..مذاق ما".

"جيد! على الأقل ليست سيئة".

قالها الدكتور وابتسم بخفة، نظرت حولي وسألته:

"هل تعمل هنا بمفردك؟".

لم يكن هناك تصميم مميز للمكان، فقط كان المتجر منقسمًا لقسمين، قسم به آلة الحساب، وحامل للعرض، وطاولة، وبدا وكأن القسم الخلفي للمتجر هو مكان الخبيز، أجاب دكتور شيم

"نعم، أنا المالك والموظف الوحيد، أرى أن هذا أفضل، ولا يحتاج الأمر إلى أكثر من ذلك".

كانت إجابته أطول من اللازم، سألته:

"لماذا دعوتني إلى هنا؟".

سكب لي الدكتور بعض الحليب وقال:

"أنا آسف جدًا لما حدث لك، كنت أفكر منذ فترة كيف يمكنني مساعدتك".

"مساعدة؟".

"حسنًا، لا أعلم، فلقد التقينا للتو، هل تحتاج أي شيء أو تريد

أن تسألني عن أي شيء".

أخذ الدكتور ينقر بأنامله على الطاولة، بدا وكأنها عادته، لكنها أزعجتني:

"هل يمكنك التوقف عن هذا؟".

نظر إلي الطبيب من فوق نظارته وابتسم وقال:

"هل سمعت عن ديوجين؟ أنت تذكرني به، عندما أخبره الإسكندر الأكبر أنه سيبدي له أي معروف يطلب، فطلب منه ديوجين أن يتنحى جانبًا لأن ظله يحجب الشمس".

"لكنك لا تذكرني بالإسكندر الأكبر".

انفجر الدكتور ضاحكًا هذه المرة:

"كانت والدتك تحدثني عنك كثيرًا، وطالما قالت إنك مميز".

مميز.. أظنني عرفت ما قصدته أمي بذلك، شد دكتور شيم قبضته وقال:

"حسنًا يمكنني التوقف عن النقر حاليًا، لكنها عادة يصعب الإقلاع عنها بعض الشيء، على أي حال ما قصدته هو إن كان يمكنني مساعدتك.. باستمرار".

"باستمرار؟!".

"إذا كنت تواجه صعوبة في العيش بمفردك، فيمكنني أن أدعمك ماديًا".

"لدي مبلغ تأميني، لذا أنا على ما يرام حتى الآن".

"طالما وصتني والدتك أن أعتني بك إن حدث لها أي مكروه، كنا مقربين، وكما تعلم كانت والدتك تسعد كل من حولها".

لاحظت أنه يتحدث عن أمي بصيغة الماضي فسألته:

"هل زرتها في المستشفى؟".

أومأ الدكتور شيم برأسه، وتدللت زوايا فمه قليلًا إلى أسفل، إذا كان حزينًا لحال والدتي، فربما أسعدها هذا بعض الشيء، فقد كانت إحدى نصائحها أنه إذا حزن أحدهم لحزني فيجب أن يسعدني هذا، قاعدة سلبي السلبي يساوي إيجابي، سألته:

"لماذا يدعونك دكتور؟".

"كنت طبيبًا، لكن ليس بعد الآن".

"يا له تغيير مثير لمجال العمل".

انفجر الطبيب ضاحكًا مرة أخرى، أدركت تدريجيًا أنه يضحك لأشياء لم أقصد قولها بروح الدعابة، سألني هو:

"إذًا هل تحب الكتب؟".

"نعم. اعتدت مساعدة أمي في المكتبة من قبل".

"حسنًا إليك هذه الصفقة، واصل العمل بالمكتبة بدوام جزئي، وبصفتي مالك العقار سأدفع لك راتبًا شهريًّا، هكذا يمكنك ادخار نقود التأمين لدراستك الجامعية أو أمور أهم، وتدبر نفقات معيشتك الخاصة براتب الدوام الجزئي، إذا اتفقنا، فسأعتني أنا بالتعقيدات والإجراءات الأخرى".

أخبرته أنني سأفكر بالأمر، تمامًا مثلما فعلت مع الإخصائي الاجتماعي، فقد تعلمت أن أتمهل عندما يقدم لي أحدهم عرضًا استثنائيًّا، أكمل حديثه:

"وإذا واجهتك أي صعوبات فلا تتردد في إبلاغي، لقد فوجئت قليلًا لأن حديثنا معًا كان ممتعًا أكثر ما توقعت، وأعرف أنك تفعل ذلك بالفعل، لكن استمر في بيع أكبر عدد من الكتب".

سألته قبل أن أخرج.

"هل كنت تواعد أمي؟".

اتسعت عين الدكتور شيم ثم ضاقت.

"أهذا ما تبادر لذهنك حقًّا؟ كنا مجرد أصدقاء.. أصدقاء مقربين للغاية".

قالها وتلاشت ابتسامته ببطء.

22

قبلت عرض دكتور شيم، لم يبدُ لي اقتراحًا مؤذيًا بأي شكل، واستمرت حياتي بنمطية أكثر ومشاكل أقل، قضيت أيامي في محاولة زيادة مبيعات المكتبة من خلال البحث عن أكثر الكتب مبيعًا وكتيبات إرشادية لامتحانات الخدمة المدنية وشراء النسخ الجيدة منها، لم يزُرني زبون واحد في الأيام الباردة، ولم أنبس ببنت شفة، كنت عندما أفتح فمي لشرب الماء تتسلل رائحة أنفاسي الكريهة إلى أنفي.

بقينا نحن الثلاثة على حالنا في إطار الصورة في زاوية المكتب، أم وابنة مبتسمتان وأنا بلا أي تعابير، كانت أحيانًا أحلام اليقظة تأسرني حيث أتخيل أمي وجدتي في رحلة بمكان ما، بالطبع كنت أعرف أنها رحلة أبدية لن تنتهي، كانتا كل عالمي، لكن ما تعلمته في غيابهما أن هناك أشخاصًا آخرين في هذا العالم، وشيئًا فشيئًا تسلل هؤلاء الأشخاص إلى حياتي ببطء واحدًا تلو الآخر، كان أولهم دكتور شيم، اعتاد أن يعرج بمكتبتنا من حين لآخر تاركًا بعض المخبوزات والكعك، ويربت على كتفي ناصحًا بأن أبقى قويًّا، رغم أني لم أشعر حقًّا بأي ضعف!

زرت أمي يوميًّا بعد غروب الشمس، كانت لا تزال مستلقية في ثبات مثل الأميرة النائمة، لو كانت أمي مدركة لحالي الآن، ماذا كانت

لتريدني أن أفعل؟ أن أبقى بجانبها وأقلبها كل بضع ساعات؟ لا أعتقد ذلك، كانت على الأغلب ستريدني أن أذهب للمدرسة؛ لأن هذه هي الحياة "الطبيعية" لمن هم في سني، لذا قررت العودة إلى المدرسة.

هدأت الرياح العاتية تدريجيًّا، وجاءت رأس السنة القمرية الجديدة، ثم عيد الحب، وعندما أصبحت معاطف الناس أخف، تخرجتُ أخيرًا في المدرسة الإعدادية وانتقلت إلى المدرسة الثانوية، كنت أسمع شكاوى لا حصر لها على المذياع والتلفاز لأشخاص يتعجبون كيف يمر شهرا يناير وفبراير بهذه السرعة.

وسرعان ما حل شهر مارس، وأصبح طلاب رياض الأطفال في المرحلة الابتدائية، وطلاب المرحلة الابتدائية في المرحلة الإعدادية، وأنا أيضًا انتقلت لمدرسة جديدة للالتحاق بالمرحلة الثانوية، وكان عليّ أن أقابل المعلمين والطلاب يوميًّا مرة أخرى.

ثم بدأت الأمور تتغير شيئًا فشيئًا.

23

كانت المدرسة الجديدة مدرسة ثانوية مختلطة شيدت منذ نحو عشرين عامًا، لم يكن لديها معدل قبول مرتفع في كليات القمة، وعُرفت أيضًا بالطلاب الجامحين أو المنحرفين.

عرض دكتور شيم مرافقتي إلى حفل الترحيب بالطلبة الجدد، لكني رفضت، وشاهدت مراسم الاحتفال وحدي من بعيد، كان مبنى المدرسة أحمر اللون، وفاحت منه رائحة الطلاء بسبب أعمال الترميم الحديثة، وشعرت أن الزي المدرسي متكلف وغير مريح.

في اليوم الثاني من بداية الفصل الدراسي الجديد، استدعتني معلمة الفصل، كانت هذه هي سنتها الثانية في هذا المنصب، وربما كانت تكبرني بعشرة أعوام فقط، وكان تخصصها هو الكيمياء، ألقت بنفسها على أريكة أرجوانية بالية في غرفة الاستشارات حتى صعدت سحابة من الغبار إثر جلستها، ثم أحكمت قبضتها وتنحنحت بصوت خافض، ربما كانت معلمة بالمدرسة لكنها بدت كابنة صغرى مدللة بالمنزل، أزعجني صوت تنحنحها المستمر، لكنها بدأت حديثها أخيرًا بإقبال.

"لا بد أن الأمر كان صعبًا عليك، هل هناك أي شيء يمكنني مساعدتك به؟".

غالبًا ما كانت تعرف ما مررت به، يبدو أن الإخصائيين الاجتماعيين ومحامي أسر الضحايا قد تواصلوا مع المدرسة، وبمجرد أن سألتني رددت بسرعة:

"كل شيء على ما يرام".

رفعت المعلمة حاجبيها قليلًا وامتعضت شفتاها كما لو أنها لم تتوقع هذا الرد.

***

في اليوم التالي وقبل نهاية الحصة بقليل، بدا أن المعلمة قد بذلت جهدًا لحفظ أسماء الطلاب في يومين، ولم يلتفت أحد لذلك؛ لأن تلك الأسماء التي حفظتها بشق الأنفس تبعتها دائمًا بعبارات مثل "اجلس من فضلك" و"صه"، كان من الجلي أنها لا تتمتع بموهبة جذب انتباه الآخرين، وكانت عادتها أن تتنحنح كل بضع ثوان، لكنها رفعت صوتها فجأة وقالت:

"حسنًا، فلننتبه..أحد زملائنا هنا بالفصل مر بتجربة صعبة للغاية، فقد فقد عائلته في عيد الميلاد الماضي، فلنصفق له تشجيعًا ومؤازرة، قف من فضلك يا سون يون جيه".

فعلت كما قالت المعلمة:

"تحلَّ بالقوة يا يون جيه".

قالتها ورفعت ذراعيها عاليًا وأخذت تصفق، ذكرتني بمديري التصوير في برامج التلفاز الذين يحثون الجمهور على التصفيق والهتاف من خلف الكاميرا.

جاء رد فعل الطلاب فاترًا، تظاهر معظمهم بالتصفيق، وقليل فقط من فعل بصدق، وتوقفوا بعد وهلة، ولكن ظلت أعينهم تراقبني في صمت تام، كان خطئي أني أخبرتها أمس أنني على ما يرام، ربما كان من الأفضل أن أخبرها أن تهتم بأمورها وتدعني وشأني.

24

لم يستغرق الأمر وقتًا طويلًا لتنتشر عني الشائعات، بمجرد كتابة "جريم.." في مربع البحث بأي محرك بحث، كانت جملة "جريمة عيد الميلاد" تظهر تلقائيًا كنتيجة أولى، وتظهر أيضًا بعد المقالات عن المراهق سون ذي السبعة عشر عامًا والذي فقد جدته ووالدته يوم الحادثة، وبجانبها صورة مشوشة قد التقطت لي يوم الجنازة، لكنهم لم يتقنوا تشويشها لدرجة أن أي شخص يعرفني يمكنه تمييزي بسهولة.

تباينت ردود أفعال الطلبة، أشار البعض إلي من بعيد في الردهة وهمسوا بينما أمر بجانبهم، ومنهم من تعمد الجلوس بجانبي أو التحدث معي أثناء استراحة الغداء، وكنت أجد عيونهم مصوبة نحوي كلما استدرت في الفصل.

يومًا ما تحلى أحد الطلبة بالشجاعة الكافية ليسأل عما يثير فضول الجميع، كنت يومها في طريقي إلى الفصل بعد استراحة الغداء، ورأيت ظلًا ضئيلًا يطفو على نافذة الردهة، كان فرع نبتة نمت في طرفه براعم فورسيثيا صغيرة، فتحت النافذة وأدرت الفرع للاتجاه المعاكس لأنني اعتقدت أنه من الأفضل أن تتعرض البراعم لضوء الشمس، ثم فجأة تردد صدى صوت عال في الردهة.

"كيف شعرت عندما ماتت والدتك أمام عينيك؟".

التفت إلى الصوت، كان صبيًا صغيرًا من الذين يردون بوقاحة

على المعلمين في الفصل ويستمتع بجذب انتباه الجميع من خلال أفعاله، مثل هؤلاء الأولاد تجدهم في كل مكان.

"لم تمت أمي، جدتي هي من ماتت".

عندما أجبت، تعجب الصغير وفغر فاه ونظر حوله ليرى الأطفال يضحكون.

"حقًّا! آسف، إذًا اسمحوا لي أن أسأل مرة أخرى، كيف شعرت عندما ماتت جدتك أمام عينك؟".

سأل الولد مرة أخرى، وأطلقت بعض الفتيات صيحات استهجان بأن ما يفعله ليس مضحكًا، فقال بصوت أرق رافعًا كتفيه وراحتا يديه لأعلى:

"بربكم، ألا تريدون جميعًا أن تعرفوا أيضًا".

سألته:

"أتريدون حقًّا أن تعرفوا؟".

فلم يُجب أحد وظلوا واقفين بلا حراك:

"لم أشعر بشيء على الإطلاق".

أغلقت النافذة ودخلت الفصل، عاد الضجيج، لكن الأمور لم تعد إلى ما كانت عليه قبل دقيقة من الآن.

25

كنت قد اكتسبت سمعة من هذه الحادثة، ولم تكن سمعة جيدة، كنت عندما أمر بالردهة يتفرق الأطفال من حولي كما انشق البحر الأحمر قديمًا، ولازمتني الهمهمات في كل مكان "ها هو آت، يبدو طبيعيًا" حتى إن بعض طلاب الصف الثاني والثالث جاؤوا إلى طابقنا فقط ليروني، هذا هو الصبي الذي رأى مذبحة رؤى العين، وشاهد عائلته تنزف حتى الموت، ورغم ذلك لم يرف له جفن، بل ويقول إنه لم يشعر بشيء على الإطلاق.

وسرعان ما انتشرت الشائعات أكثر وأكثر، ادعى بعض الطلبة أنهم كانوا معي بالمدرسة الابتدائية أو الإعدادية وقد شهدوا على سلوكي الغريب بأنفسهم، وكما هي الحال مع كل القيل والقال، كان هناك الكثير من التهويل والمبالغة في معظم الأحيان، قال أحدهم أن معدل ذكائي تخطى الـ200 نقطة، وقال الآخر إني قد أطعن أي شخص يقترب مني، وزاد الآخر أنني أنا من قتلت أمي وجدتي.

كانت أمي تقول إن كل مجتمع يحتاج إلى كبش فداء، وقد حصنتني بكل هذا التعليم الإضافي لأنها اعتقدت أنني على الأغلب سأكون هذه الضحية، والآن بعد أن ذهبت أمي وجدتي، تحققت نبوءة أمي، فسرعان ما لاحظ الأطفال أنني لا أتفاعل مع حديثهم

بأي شكل، وبدؤوا يسألونني أسئلة غريبة أو يسخرون مني بشكل صارخ، كنت عاجزًا تمامًا دون نماذج أمي للرد على كل محادثة وسيناريو جديد.

ذُكرت قصتي أيضًا في اجتماع المعلمين، يبدو أنهم قد تلقوا شكاوى من الآباء أن وجودي ذاته يجعل أجواء الفصل فوضوية، على الرغم من أنني لم أقم بأي فعل مميز أو غريب، وحتى المعلمون أنفسهم لم يفهموا حالتي جيدًا، بعد فترة زار دكتور شيم مدرستي، واجتمع طويلًا مع معلمة فصلي، وفي ذلك المساء تناولنا أنا وهو الجاجانجميون[6] معًا على العشاء في مطعم صيني، وعندما انتهينا من الطعام، دخل دكتور شيم لصلب الموضوع بعد الكثير من المماطلة، قال باختصار، إنه ربما لم تكن المدرسة مساحة مناسبة لي.

"هل تعني أن علي ترك المدرسة؟".

هز دكتور شيم رأسه نفيًا واستدرك:

"لا يمكن لأحد أن يطلب منك هذا، لكن ما قصدته.. هل يمكنك تحمل كل هذا المضايقات حتى تصبح بالغًا؟".

"أنا لا أهتم حقًا، لا بد أنك تعرف هذا إذا أخبرتك أمي حقًا

6- جاجانجميون: طبق شعبية كوري من أصل صيني يقدم مع صلصلة سوداء سميكة تصنع من الفاصوليا الحلوة. بالإضافة إلى اللحوم والخضراوات. وفي بعض الأحيان المأكولات البحرية.

بحالتي".

"والدتك أيضًا لم تكن لتريد أن تُعامل هكذا".

"أمي أرادتني أن أعيش بشكل طبيعي، على الرغم من أنني في بعض الأحيان لا أعلم حقًا ما يعنيه هذا".

"ربما عنت والدتك أن تكون عاديًا".

"عاديًا..".

تمتمت، قد لا يكون هذا خطأ، أن أكون عاديًا مثل الآخرين دون التعرض لمواقف صعبة، أذهب إلى المدرسة، أتخرج، إذا كنت محظوظًا ألتحق بالجامعة، وأحصل على وظيفة لائقة، وأقابل فتاة أحبها وأتزوجها، وننجب أطفالًا.. حياة مثل هذه، تليق بعبارة "لا تخرج عن المألوف".

قال دكتور شيم:

"يرسم الآباء توقعات كبيرة لأطفالهم، ولكن عندما تسير الأمور عكس توقعاتهم، فجل ما يريدونه أن يكون أطفالهم فقط عاديين، معتقدين أن الأمر بسيط، لكن في الواقع، أن تكون عاديًا هو أصعب شيء يمكن تحقيقه".

تعالى إليّ التفكير في الأمر، لا بد أن ما أرادته جدتي لأمي كان مجرد حياة طبيعية أيضًا، لكن أمي لم تستطع تحقيق ذلك، وكما قال دكتور شيم، فإن كلمة "عادي" في حد ذاتها كلمة مخادعة،

فيعتقد الجميع أن "عادي" شيء يسهل تحقيقه، ولكن كم منهم سيتناسب بالفعل مع ما تشير إليه الكلمة من سلاسة ويسر؟ وبالطبع فإن الأمر أكثر صعوبة بالنسبة لي؛ لأنني لم أخلق لأكون عاديًا، ولا يعني هذا أنني غير عادي، أنا فقط مجرد صبي غريب يتجول في منطقة رمادية بين هذا وذاك، لذلك قررت أن أجرب، أن أكون عاديًا.

"أريد أن أكمل دراستي بالمدرسة".

كان هذا هو القرار الذي توصلت إليه في نهاية اليوم.

أومأ دكتور شيم برأسه وقال:

"السؤال هو كيف، دعني أسدي لك نصيحة، كلما استخدمت عقلك زادت كفاءته، إذا استخدمته لغايات سيئة، نما لديك عقل سيئ، وإذا استخدمته لغايات حميدة، نما لك عقل رزين، سمعت أن بعض أجزاء دماغك ضعيفة، لكن إذا داومت على التمارين والممارسة، يمكنك جعلها أقوى".

"أنا أتدرب كثيرًا، على سبيل المثال أرفع زوايا فمي هكذا للابتسام، لكنني علمت أن ابتسامتي تبدو مختلفة عن الآخرين".

"لماذا لا تخبر والدتك بهذا؟".

"بماذا؟".

"أنك أصبحت طالبًا بالمدرسة الثانوية، وتواظب على الحضور

يوميًا، أعتقد أنها ستحب سماع ذلك".

"لست مضطرًا لذلك، فلا يمكنها حقًا سماع أي شيء".

لم يكمل دكتور شيم حديثه، فما قلته لم يكن قابلًا للدحض.

26

تساقطت زخات المطر على النافذة، كانت تلك هي أمطار الربيع، كانت أمي تحب المطر، طالما قالت إن للمطر رائحة طيبة، لكنها الآن لا تستطيع سماع صوته أو شم رائحته، لكن ما المميز برائحة المطر على أي حال؟ كانت مجرد رائحة مياه كريهة تبخرت فوق الأسفلت الجاف. جلست بجانب أمي وأمسكت بيدها، أصبحت بشرتها جافة للغاية، وضعت مرطبًا برائحة الورد على وجنتيها وظهر يدها، وخرجت من الغرفة وركبت المصعد متجهًا لمقصف المستشفى، فُتح باب المصعد فالتقت عيني بعيني رجل يقف بالخارج، كان هذا هو الرجل الذي عرفني لاحقًا على الوحش، وأقحم هذا الصبي في حياتي.

***

كان رجلًا في منتصف العمر ذا شعر فضي، ويرتدي حلة أنيقة، لكن كانت أكتافه منحنية وعيناه المظلمتان مغرورقتان بالدموع،

كان يمكن أن يبدو وسيمًا لولا تعبيره القاتم، فبدا وجهه شاحبًا وهزيلًا.

في اللحظة التي رآني فيها، ارتجفت عيناه بشدة، انتابني حدس أنني سأراه ثانية عن قريب، أعرف أن كلمة "حدس" لا تناسبني، للدقة لم أشعر بأي حدس قط.

لكن عندما أعدت التفكير في الأمر، لا يشعر الإنسان بالحدس تلقائيًا، بل إن الدماغ يسجل تجاربك السابقة واليومية ويترجمها إلى شروط ونتائج ويحتفظ بسجل متراكم لها دون أن ندرك ذلك، لذا عندما نصادف موقفًا مماثلًا، فإن التنبؤ بالنتيجة يحدث بلا وعي، لذا فإن الحدس هو في الواقع ارتباط شرطي، تمامًا مثلما تخلط الفاكهة في الخلاط، فأنت تعرف أن الناتج سيكون بالتبعية عصيرًا، وهكذا فإن الطريقة التي نظر بها إليّ أعطتني هذا النوع من الحدس.

بعد ذلك، كنت أصادفه كثيرًا في أروقة المستشفى، وكان ينظر إليّ كلما أدرت ظهري له في المقصف أو الردهة، بدا وكأن لديه ما يقوله أو ربما كان يراقبني فقط، لذلك عندما زارني شخصيًا في المكتبة، استقبلته كما لو لو كنت متوقعًا زيارته:

"أهلًا وسهلًا".

أومأ الرجل برأسه إيماءة طفيفة، وبدأ يجول ببطء حول أرفف الكتب، كانت خطواته ثقيلة، اجتاز قسم الفلسفة ومكث قليلًا في

قسم الأدب قبل أن يأخذ كتابًا ويتجه الى الخزانة، كانت على وجهه ابتسامة لكنه بطريقة ما لم يستطع النظر إليّ مباشرة، كانت أمي قد أخبرتني أن هذه هي أعراض "التوتر"، سأل عن سعر الكتاب الذي يحمله فأجبت:

"مليون وون".

أخذ يتصفح الكتاب قائلًا:

"إنه أغلى مما اعتقدت، هل يستحق كل هذا؟ إنها ليست حتى الطبعة الأولى، وهو مترجم أيضًا، لذا حتى لو كانت الطبعة الأولى، فلا يبدو أنه يساوي الكثير".

كان عنوان الكتاب "دميان".

"ما زال يساوي مليون وون على أي حال".

كان هذا الكتاب كتاب أمي، ظل عالقًا على رف كتبها منذ أن كانت في المدرسة الإعدادية، وهو الكتاب الذي ألهمها لتصبح كاتبة، ولم أكن لأبيعه تحت أي ظرف، يا لها من مصادفة أن يختاره الرجل من بين كل الكتب، أخذ الرجل نفسًا عميقًا، وبدا من مظهر لحيته أنه لم يحلق منذ أيام.

"ربما يجب أن أقدم نفسي أولًا، اسمي يون كونهو، وأُدرّس ريادة الأعمال بالجامعة، يمكنك البحث عني على الإنترنت، أنا لا أتفاخر ولكن أحاول أن أخبرك فقط أنني شخص محل ثقة".

"أعرف وجهك جيدًا، التقينا في المستشفى عدة مرات".

راقت تعابير الرجل:

"شكرًا أنك تذكرتني، لقد قابلت ولي أمرك دكتور شيم، وسمعت عن الحادث المؤسف الذي تعرضت له، وسمعت أيضًا أنك شاب فريد، وجئت بناء على طلب دكتور شيم للقائك شخصيًّا، أنا هنا لأطلب منك معروفًا".

"وما هو؟".

قال الرجل مترددًا:

"من أين أبدأ..".

"قلت إنك تريد أن تطلب مني معروفًا، فقط قل لي ما هو".

"أنت واضح كما سمعت" ابتسم لوهلة "أعرف أن والدتك مريضة، زوجتي أيضًا مريضة وستغادر عالمنا قريبًا، ربما في غضون أيام قليلة..".

تقوس ظهره للأمام مثل القريدس، وأخذ نفسًا عميقًا مرة أخرى ثم واصل حديثه:

"لدي طلبان، الأول أن تأتي لزيارة زوجتي، والثاني..".

أخذ نفسًا عميقًا آخر.

"هل يمكنك التظاهر بأنك ابننا أمامها؟ لن يكون الأمر صعبًا، كل ما عليك فعله هو قول بعض الكلمات التي سألقنك إياها".

لم يكن طلبه عاديًا، كان غريبًا ولم أسمع به من قبل، عندما سألته عن السبب، نهض وأخذ يتجول حول المكتبة، بدا أنه بحاجة إلى بعض الوقت قبل أن يقول أي شيء.

"فقدنا ابننا منذ ثلاثة عشر عامًا".

استطرد:

"بذلت كل ما بوسعي كي أجده، لكن الأمر لم ينجح، كنا أغنياء وعدت من الدراسة خارجًا لأصبح أستاذًا في سن مبكرة، وكانت لزوجتي حياة مهنية رائعة أيضًا، اعتقدت أنني وزوجتي سنستمتع بحياة ناجحة، لكن كل شيء تغير بعد فقدان طفلنا، كاد زواجنا ينهار، ومرضت زوجتي، ولم يكن الأمر سهلًا بالنسبة لي أيضًا، لا أعرف لماذا أخبرك بهذا ، لكن ..".

"وماذا بعد؟".

سألت، على أمل ألا يستمر حديثه طويلًا.

"لكني تلقيت مكالمة منذ فترة، أن هناك طفلًا قد يكون ابننا، فذهبت لرؤيته..".

توقف الرجل عن الكلام وعض على شفتيه لبرهة ثم أكمل.

"تمنيت أن ترى زوجتي ابنها قبل أن تموت، الابن الذي طالما حلمت به".

شدد الرجل على كلمة حلمت:

"لقد وجدت ابنك، أليس ذلك ما كنتم تحلمون به؟".

"من الصعب قول ذلك، لا، ومن الصعب أيضًا شرح الأمر".

أحنى الرجل رأسه.

"إذًا لماذا أنا؟".

"هلا نظرت إلى هذه الصورة".

أخرج الرجل ورقة، كانت نشرة للبحث عن طفل مفقود، بجانبها صورة لطفل يبلغ من العمر نحو ثلاث أو أربع سنوات، وتجاورهم صورة أخرى لما سيبدو عليه الطفل الآن، يمكننا القول إنه يشبهني، كنا نتشارك بعض السمات الشكلية، ونفس التعبيرات.

سألت مرة أخرى لأنني لم أفهم تمامًا:

"ألا يشبه الابن الذي وجدته هذا التخيل؟".

"حسنًا.. لقد بدا مثل الصورة، أعني، أنه يشبهك أيضًا، لكنه ليس في حالة تخوله لرؤية والدته، أتوسل إليك. ساعدني مرة واحدة فقط... سوف أنقل والدتك إلى مكان أفضل، وأدفع مقابل

رعايتها الطبية، وإذا كان هناك أي شيء آخر تريده، سأحاول مساعدتك بكل ما في وسعي".

انهمرت الدموع من عيني الرجل، وكالعادة قلت له إنني سأفكر في الأمر.

***

لم يكن الرجل يكذب، كان من السهل التأكد من وظيفته وعائلته وقصة اختفاء ابنه المأساوية من الإنترنت، تذكرت نصيحة جدتي أنه يجب مساعدة الآخرين إن لم يكن هناك ضرر، لذلك عندما عاد الرجل في اليوم التالي أخبرته أنني وافقت على عرضه.

لكني لم أكن لأختار نفس الاختيار إذا كنت قد قابلت جوني أولًا، لأنه بسبب هذا الاختيار ودون قصد، سرقت منه شيئًا لا يمكن استرجاعه للأبد.

27

زينت زهور مختلفة الغرفة، وأضفت المصابيح الصغيرة وهجًا دافئًا هنا وهناك، كانت الغرفة مختلفة عن جناح أمي الذي يضم ستة أشخاص، بل كانت كغرف الفنادق التي نراها بالأفلام، لا بد أن السيدة كانت تحب الزهور، لكن رائحتها أصابتني بالصداع،

حتى ورق الحائط كان مزينًا بالأزهار، فآلمتني عيني أيضًا، سمعت أنه غير مسموح بإحضار الزهور إلى المستشفى، لكن على ما يبدو أن هناك استثناءات.

اقترب الرجل ببطء من مقدمة السرير ويده حول ذراعي، بدت السيدة المحاطة بالورود وكأنها في نعش بالفعل، ألقيت نظرة على وجهها من قرب، ذكرتني بمرضى الأفلام المصابين بمرض عضال، حتى ضوء الشمس النافذ من الشرفة لم يكن كافيًا لمحو الظلال الرمادية على وجهها، مدت ذراعيها النحيفتين مثل أغصان الشجر نحوي، ولمست وجنتي، لم أشعر أنها لمسة يد على قيد الحياة.

"هذا أنت يا عزيزي لي سو، ابني الحبيب، لماذا تأخرت كل هذه السنوات..".

انهمرت الدموع بلا توقف على وجنتيها، تساءلت كيف أمكنها البكاء بجسد هزيل كهذا، في كل مرة يعلو صدرها ويهبط اعتقدت أنها ستفنى وتتحول إلى رماد.

"أنا آسفة يا حبيبي، تمنيت أن نفعل الكثير معًا، نأكل ونسافر، وأراك تكبر أمام عيني.. جاءت الرياح بما لا تشتهي السفن.. لكني ما زلت ممتنة أنك نشأت طيبًا، شكرًا لك يا بني".

بكت السيدة مرارًا وتكرارًا، وتأسفت وشكرتني عشرات المرات، ثم حاولت الابتسام، وظللنا على هذه الحال قرابة ثلاثين دقيقة، أمسكت بيدي وداعبت خدي، وبدت وكأنها تستنزف كل ما تبقى

من طاقتها علي.

لم أقل الكثير، عندما توقفت السيدة عن الكلام للحظة، غمز لي الرجل، فقلت بعض العبارات التي اتفقنا عليها مسبقًا، أنني قد نشأت في أسرة ميسورة بلا صعوبات، والآن سأعيش مع والدي وأكمل دراستي، ولا داعي لأن تقلق، وابتسمت سريعًا، بدت السيد وكأنها أنهكت تمامًا، فبدأت جفونها تتدلى وقالت:

"هل تسمح لي بغمرة".

كانت تلك هي كلماتها الأخيرة، تشبثت ذراعاها النحيفتان بظهري، شعرت وكأنني وقعت في فخ لا يمكن الخروج منه، سمعت قلبها ينبض قبال قلبي، وأحسست وكأن نبضاتها أحرقت صدري، ثم انزلقت ذراعاها أخيرًا من فوق ظهري وسرعان ما استرخى جسدها، قالت الممرضة التي بجانبها إنها فقط نائمة.

28

يقال إن تلك السيدة كانت يومًا صحفية ناجحة، ومراسلة نشطة وجريئة، تكتب مقالات بارعة وتحرج خصومها بأسئلة شجاعة نادرًا ما يطرحها الآخرون، لكنها دائمًا ما كانت تشعر بالذنب لأنها تترك ابنها في رعاية الآخرين بسبب انشغالها بالعمل.

ذات يوم، أخذت السيدة إجازة وذهبت مع طفلها إلى مدينة

الملاهي، صعدت إلى لعبة دوامة وطفلها بين ذراعيها، كانت نزهة ممتعة في يوم مشمس، رن هاتفها فأمسكت بيد طفلها وردت على المكالمة، كانت مكالمة قصيرة، لكن حين انتهت لم تتمكن من رؤية طفلها في أي مكان، لم تستطع حتى تذكر متى ترك يدها.

لم تكن كاميرات المراقبة المثبتة بمعظم الأماكن الآن منتشرة بعد، ولذلك كان هناك الكثير من المناطق المتوارية، وحتى بعد تحقيق طويل، ظل مكان الطفل مجهولًا، بذل الزوجان قصارى جهدهما للعثور على الطفل دون جدوى، وتلاشى الأمل تدريجيًّا، صلوا أن يكون فقط على قيد الحياة وفي بيت دافئ، رغم ذلك ظلت الخيالات المرعبة تطاردهم ليلًا نهارًا، لامت السيدة نفسها بلا هوادة وأدركت أن النجاح الذي كانت تسعى إليه لم يكن إلا سرابًا.

أضنى هذا الفكر السيدة ببطء، ورغم اعتقاد الرجل أن زوجته كانت مسؤولة إلى حد كبير عن فقدان طفله، لكنه لم يرِد فقدانها أيضًا ليصبح وحيدًا تمامًا، ولكنه كف عن إخبارها أن ابنهما سيعود منذ زمن طويل.

قبل أيام من مقابلتي مع هذا الرجل، تلقى هو مكالمة من أحد الملاجئ تفيد بأنهم ربما وجدوا طفله، زار الرجل الملجأ ليلتقي بابنه مرة أخرى بعد ثلاثة عشر عامًا، لكن الصبي الذي وجده لم يكن مستعدًّا بأي حال للقاء والدته، لأن ذلك الفتى كان جوني!

29

ربما أفنت تلك السيدة أنفاسها الأخيرة عليّ حقًّا، ففي اليوم الذي زرتها فيه أصيبت بغيبوبة وتوفت بعدها ببضعة أيام، أخبرني البروفيسور يون بوفاة زوجته بصوت هادئ ومنخفض، ورباطة جأش يعجز الكثيرون عن التحلي بها في تلك المواقف، ربما من يمكنهم فعل ذلك من هم مثلي بدماغ عليل، أو من ودع فقيده بالفعل منذ وقت طويل، وكان البروفيسور يون هو الأخير.

لا أعرف لماذا ذهبت إلى الجنازة، لم أكن مضطرًّا لذلك حقيقة، لكني فقط ذهبت، ربما لأنها عانقتني بقوة ذلك اليوم.

***

كانت جنازتها مختلفة تمامًا جنازة جدتي، كانت جنازة جدتي عبارة عن نصب تذكاري مشترك وغير شخصي، لكن جنازة السيدة يون ذكرتني بلم الشمل لجميع من لم تلقاهم منذ زمن، كان الضيوف مهندمين ويرتدون حلات أنيقة، وكان لكل واحد منهم مسمى وظيفي معقد وكانت محادثاتهم أيضًا كذلك، غالبًا ما طرأ إلى سمعي لفظة طبيب أو مدير أو أستاذ أو رئيس.

بدت السيدة يون في صورة تأبينها مختلفة تمامًا، شفاه موردة وشعر كثيف ووجنتين وعينين تلمعان مثل ضوء الشمس، بدت يافعة للغاية، لا بد أن هناك سببًا لاستخدام صورتها في سن

الثلاثين، بدا وكأن البروفيسور يون قد قرأ ذهني فقال:

"هذه الصورة التقطت قبل أن نفقد صغيرنا، لم أتمكن من العثور على صورة بنفس التعبير المبتسم بعد الحادثة، وقد أرادت أيضًا أن تُؤَبَّن بهذه الصورة".

أشعلت بخورًا وانحنيت عند المذبح، وقد حققت لها رغبتها بلقاء ابنها قبل أن تموت، على الاقل هكذا اعتقدت هي، هل كانت ستحزن أكثر إذا عرفت الحقيقة؟

كنت قد قمت بواجبي على أي حال، فهممت بالمغادرة، ذلك عندما شعرت فجأة بكتلة هواء بارد غمرت المكان، وقف الجميع في صمت إثر صدمة ما، فغروا فاهم وتوقفت الكلمات في حلوقهم، ودارت عيونهم في الاتجاه ذاته كما لو كانوا على اتفاق مسبق، كان الصبي هناك.

30

وقف صبي قصير نحيل في ثبات حاكمًا قبضتيه، كانت ذراعاه وساقاه طويلتين مقارنة بحجم جسده الضئيل، لكنه تمتع بلياقة بدنية تشبه لياقة البطل في مسلسل الرسوم المتحركة اليابانية "جو

البطل"[7]، لكن جسده لم يكن متناسقًا مثل أجسام الرياضيين، بل كان مثل أطفال العالم الثالث الذين رأيتهم في أحد الأفلام الوثائقية، أجساد نحتت من أجل البقاء، من تمارين البحث في صناديق القمامة طوال اليوم، والتسول والتوسل للسائحين لكسب بعض الدولارات، ولم يكن لبشرته الداكنة أي بريق، وكانت هناك عينان محدقتان تلمعان مثل بلورات سوداء تحت حاجبيه الرامية بظلال سوداء على وجهه، وكانت تلك العيون هي من أسكتت الجميع، كان الأمر أشبه بوحش كشر عن أنيابه أولًا لأشخاص لم يكن في نيتهم إيذاؤه، ثم افترس جِراءه بعد ذلك.

بصق الصبي على الأرض، بدا وكأنها طريقته الخاصة للتحية، رأيته يفعلها من قبل في لقائنا الأول، في الواقع كانت الجنازة هي لقائي الثاني بجوني.

***

قبل أيام قليلة، نُقل طالب جديد إلى فصلنا، فتحت المعلمة الباب ليظهر الفتى الضئيل خلفها، وقف عاقدًا ذراعيه ومتكئًا على قدم واحدة، وكانت هيئته تدل أنه لم يتعرض لرهاب مقابلة الغرباء من قبل، ترنحت معلمة الفصل وثرثرت قليلًا كما لو كانت هي من

7- "Ashita no Joe" : مسلسل رسوم متحركة ياباني من إنتاج شركتي موشي برودكشن ونيبون أنيميشن. يحكي قصة الملاكم جو يابوكي. عرض لأول مرة في الأول من أبريل 1970. (المترجمة)

انتقل للفصل حديثًا، ثم طلبت من جوني تقديم نفسه، اتكأ جوني على قدمه الأخرى ثم قال:

"لم لا تفعلينها بدلًا مني؟".

انفجر الطلاب ضحكًا وتهليلًا، وغطت المعلمة وجهها المتورد بكفيها خجلًا.

"هذا هو يون لي سو، رحب بزملائك يا لي سو".

قال جوني:

"آه، حسنًا ...".

طقطق رقبته ومط شدقيه بلسانه، وابتسم ثم أدار رأسه جانبًا وبصق، سألته المعلمة:

"أهذا كل شيء؟".

هلل الطلاب بصوت أعلى، ومع ذلك عبر البعض عن استيائهم بكلمات قاسية، في مثل هذه المواقف عادة ما تحذرهم المعلمة أو يساقون إلى مكتب المعلمين، لكن هذه المرة كانت مختلفة، لسبب ما أشاحت المعلمة بوجهها دون أن تنبس ببنت شفة، وقد توهج وجهها احمرارًا أكثر من ذي قبل، محاولة بلع كم الكلمات التي تريد التفوه بها، غادر جوني مبكرًا بعد ساعة من تقديمه لنفسه.

سرعان ما بدأ العث عن معلومات الوافد الجديد، وفي غضون

ثلاثين دقيقة فقط، عرف الجميع حكاية جوني بعد أن سرب أحدهم معلومات سمعها من ابن عمه.

ارتاد ابن العم هذا المدرسة ذاتها التي كان يرتادها جوني قبل أن يغادر مركز الأحداث وينتقل إلى المدرسة الجديدة، اتصل الطالب بابن عمه واستخدم مكبر الصوت بعد إلحاح من الطلبة الآخرين، تحولق الصبية ولأول مرة منذ فترة طويلة حول الهاتف، وصعد أحدهم فوق المكتب لينصت بعناية، كنت بعيدًا جدًّا لكن كان بإمكاني سماع كل شيء بوضوح.

"هذا الصبي سفاح بمعنى الكلمة، لا بد أنه فعل كل شيء عدا القتل".

خاطبني أحدهم بسخرية قائلًا:

"هنيئًا يا أحمق، لقد ولت أيامك".

وفي اليوم التالي، عندما دخل جوني الفصل، عم صمت مطبق، مشى إلى مقعده دون أن ينبس ببنت شفة، وتجنب الطلبة عينيه أو دفنوا رؤوسهم في كتبهم المدرسية، كسر جوني الصمت وألقى بحقيبة ظهره، يبدو أنه بشكل ما قد أدرك ما حدث البارحة.

"إذًا من هو؟ من الأفضل أن تتقدم قبل فوات الأوان".

توترت الأجواء، ووقف الواشي وهو مرتجفًا.

"كل ما في الأمر... إن ابن عمي يعرفك..".

بح صوت الطفل، ومط جوني شدقيه بلسانه كما لو كانت إحدى عاداته.

"شكرًا، شكرًا جزيلًا، الآن لم أعد بحاجة لتقديم نفسي، هذا هو أنا".

قالها جوني واتكأ على مقعده.

***

لم يأت جوني إلى المدرسة يوم جنازة السيدة يون، قالوا إنه تغيب لوفاة فرد من عائلة، حتى ذلك الحين لم أدرك حقيقة أن جوني هو الابن الحقيقي للسيدة التي ماتت معتقدة أني ابنها.

31

مر جوني وسط الجمع لينحني أمام مذبح والدته، لم يكن حدثًا جللًا، فقط اتبع توجيهات والده ليشعل البخور، ورفع كأسًا من الخمر في عجالة، كانت كل حركاته سريعة، وانحنى مرة واحدة ثم قفز واقفًا في فتور، دفع البروفيسور يون ظهر جوني برفق لينحني ثانية، لكن جوني تجاهله واختفى.

جلستُ أمام الطاولة بعدما طلب مني البروفيسور يون أن أتناول الطعام قبل أن أغادر، كانت المأدبة أشبه بطعام العطلات

الذي كانت تعده أمي، حساء ساخن وفطائر مقلية وكعك الأرز وفاكهة مجففة بالعسل، لم أدرك أنني كنت أتضور جوعًا حتى وجدت نفسي ألتهم كل شيء.

لا يدرك الناس مدى ارتفاع أصواتهم عندما يثرثرون، حتى وإن قصدوا الهمس، فإن ثرثرتهم تصل مباشرة إلى آذان الآخرين دون تنقيح، كثر الحديث عن جوني طوال المأدبة، وأن سبب تأخره يومين عن العزاء هو رفضه الحضور، وأنه تعرض لمشاكل أثناء إطلاق سراحه من مركز الأحداث، وأن تكاليف نقله لمدرسة جديدة كانت باهظة للغاية، وأن صبيًّا آخر تظاهر بأنه ابنهما، كل هذه القصص أصابتني بإعياء، فجلست أواجه الزاوية وظهري للناس والتزمت الصمت، ولسبب ما لم أكن أعرفه شعرت أنني يجب أن أبقى لبعض الوقت.

بحلول المساء غادر معظم المعزين، وعاد جوني، مشى نحوي محدقًا في وجهي بنظرات كالسهام، وجلس على طاولتي دون أن يرفع عينيه عني، وأفرغ طبقين من الحساء دون أن ينبس ببنت شفة ثم مسح وجهه وقال أخيرًا:

"أكان هذا أنت؟ الوغد الذي تظاهر بأنه ابنهما".

لم أكن مضطرًّا للرد؛ لأنه أكمل حديثه قائلًا:

"استعد لبعض المشاكل، من يدري، قد يكون الأمر ممتعًا".

ابتسم جوني ونهض مغادرًا، وفي اليوم التالي، كانت البداية الحقيقية.

32

رافق شابان جوني أينما ذهب، كان أحدهما نحيفًا ولعب دور مساعد جوني الشخصي الذي ينقل أوامره للطلبة الآخرين، والآخر ضخم الجثة وكانت مهمته هي إظهار القوة، لم يبدُ الثلاثة على علاقة وطيدة، لكن بدا أنهم تعاونوا من أجل اتفاق ومصالح مشتركة أكثر من كونهم أصدقاء.

على أي حال، كان من الجلي أن جوني بدأ يمارس هوايته الجديدة، ألا وهي التنمر علي، كان يظهر أمامي من العدم مثل دمية مهرج تقفز من علبة، يتربص بي أمام المقصف ليلكمني، أو يختبئ في آخر الردهة ليوقع بي، وفي كل مرة ينجح في مخططاته الصغيرة كان يقهقه كمن تلقى هدية لتوه، ويتبعه رفيقاه في الضحك من باب المجاملة.

لم أتفاعل طوال هذا الوقت، أصبح المزيد والمزيد من الأطفال يهابون جوني ويشفقون عليّ، وبالرغم من ذلك لم يخبر أحد المعلمة بما يجري، ربما لأنهم كانوا خائفين أن يصبحوا الضحية التالية، وربما أيضًا لأنني لم أظهر أي دلالة بأنني في الحاجة للمساعدة، يبدو أن الرأي العام كان، لنرى كيف ستسير الأمور مع هذين الغريبين.

كان رد الفعل الذي ينتظره جوني مني واضحًا بالنسبة لي،

كان هناك أطفال مثله في المدرسة الابتدائية والإعدادية أيضًا، أرادوا أن يروا معاناة الوجه المشوه للصبية المستضعفين، ويستمتعوا بصرخاتهم وهم يتوسلون لهم أن يتوقفوا، وعادة ما يحصلون على ما يريدون بالقوة، لكني كنت أعرف شيئًا واحدًا على وجه اليقين، لو أراد جوني رؤية تغيير في تعبيري، فلن ينتصر أبدًا، وكلما حاول أكثر أهدر طاقته.

***

لم يمض وقت طويل حتى أدرك جوني أنني لست خصمًا سهلًا، استمر في مضايقتي، لكنه لم يعد واثقًا كما كان من قبل، وهمس الطلبة سرًا خلف ظهره "هل سيتراجع؟ يبدو متوترًا للغاية"، وكلما لم أستجب أكثر ولا أطلب المساعدة من أحد، زاد التوتر في أجواء الفصل.

كان جوني قد سئم صفعي على مؤخرة رأسي وإيقاعي على الدرج، فبدلًا من ذلك أعلن أنه سيواجهني مرة وستكون هي الحاسمة، وبمجرد أن غادرت معلمة الصف، ركض الصبي النحيف إلى السبورة وكتب شيئًا ما بحروف ملتوية:

غدًا بعد استراحة الغداء، أمام المحرقة!

رن صوت جوني منتصرًا.

"الكرة في ملعبك الآن، لا تريد أن أوسعك ضربًا؟ إذًا لا تأتي،

وسأفترض أنك فقط جبان ولن أزعجك بعد الآن، لكن إذا أتيت، فكن مستعدًّا".

بدلًا من الرد، وقفت ووضعت حقيبتي على ظهري، فألقى جوني كتابًا عليّ من الخلف، وصرخ عاجزًا عن كبح غضبه واحتقن وجهه حتى كاد يحترق:

"هل سمعتني أيها المعتوه؟ إذا كنت لا تريد أن تتعرض للضرب، تجنبني".

سألته بهدوء:

"ولماذا عليّ أن أتجنبك؟ سأذهب في طريقي حيث كنت ذاهبًا، إذا لم تكن هناك، فلن أراك، وإذا كنت هناك، فسأقابلك".

غادرت الفصل تاركًا ورائي سحب لعناته، وكل ما كنت أفكر فيه هو أن جوني بهذه الطريقة كان يتنمر على نفسه.

33

بحلول صباح اليوم التالي كانت المدرسة بأكملها قد سمعت عن المواجهة بيني وبين جوني، وكان حرم المدرسة صاخبًا منذ الصباح وتركزت النميمة والثرثرة الهائمة بين الطلبة عما سيحدث وقت الغداء، صاح أحدهم: "يا إلهي، الوقت لا يمر"، وقال الآخر: "هل سيذهب يون جاي إلى هناك حقًا؟" وراهن البعض على الفائز، أما

أنا فقد ركزت فقط في الدرس كما لو لم يكن هناك شيء يحدث، وشعرت أن الوقت مر كعادته لا سريعًا ولا بطيئًا، وبعد الحصة الرابعة رن الجرس لإعلان استراحة الغداء.

لم يجلس أحد بجواري في المطعم، وهو أمر طبيعي، ولم يكن هناك شيء مختلف حتى نهضت من مقعدي بعدما أنهيت غدائي، رأيت بعض الطلبة يقفون خلفي من بعيد، وكلما تحركت تجمهر المزيد من الطلبة ورائي، قصدت باب الخروج، وكان الطريق المختصر للوصول للفصل يحتم المرور أمام المحرقة، تحركت لوجهتي مباشرة، كان جوني هناك يقف وحيدًا دون اتباعه، وأخذ يركل جذع شجرة قريب بقدميه وتوقف عندما رآني، وعلى الرغم من أن المسافة بيننا كانت بعيدة إلا أنني رأيته يشد قبضته، وكلما اقتربت منه هرب الجمع من خلفي كغيمة تراب تنقشع شيئًا فشيئًا.

علا وجه جوني تعبير متضارب بعض الشيء، عض على شفتيه بقوة علامة على الغضب، ومع ذلك كانت زوايا عينيه مرتفعة للأعلى فلم يبدُ حزينًا، لم يكن لدي أي فكرة كيف أقرأ هذا التعبير، حتى صرخ أحدهم:

"إنه خائف، يا لك من جبان وغد يا يون لي سو".

كنت قد أصبحت أنا وجوني على بُعد خطوات قليلة، تحركت بخطى ثابتة، كنت دائمًا ما أشعر بالنعاس بعد الأكل، لذا كل ما

أردته حقًا هو أن أعود سريعًا إلى الفصل لأخذ قيلولة قبل الدرس، ودون أن أقصد مررت بجوني كما لو كان مجرد عنصر في المشهد لا معنى له، فجأة انفجر الطلبة في الصراخ والتهليل "يااااه"، وبمجرد أن فعلوا ذلك شعرت بضربة على قفاي، لا بد أنه لم يحسن التصويب حيث إنني لم أصب بأذى، لكن قبل أن ألتف، ارتمى جسدي على الأرض إثر ركلة قوية.

"أخبرتك.. أن... تتجنبني.. يا لعين.. لقد.. اخترت".

كان يركلني بثبات مع كل كلمة مثل دقات الساعة، وأصبحت ركلاته أصعب وأصعب، وكنت بالفعل مستلقيًا على الأرض والدم يسيل من فمي، لكن ما زلت لا أستطيع أن أعطيه ما يريد.

"ما خطبك أيها الأحمق!".

صرخ جوني بنبرة شبه باكية، بدأ الحشد الذي يراقبنا تعلو أصواته، "ماذا لو حدث شيء له؟ فليستدعِ أحد المعلمة" التفت جوني إلى الحشد عندما سمع همهماتهم وصرخ.

"من قال هذا؟ توقفوا عن الكلام وراء ظهري أيها الجبناء، هيا قلها في وجهي يا وغد!".

التقط جوني كل ما طالته يده من على الأرض وبدأ يلقي بها على الحشد، كانت العلب الفارغة وقطع الخشب والزجاجات تطير في الهواء لتصطدم بالأرض، فهرب الطلبة صارخين رعبًا، بينما بدا لي الأمر مألوفًا، جدتي وأمي والحشد الصارخ خلفهم كان يشبه

تمامًا ما يحدث الآن، وكان عليّ إيقافه، جمعت لعابي وبصقت الدم من فمي وقلت له:

"توقف، لا أستطيع فعل ما تريد".

شهق جوني سائلًا:

"ماذا قلت؟".

"يجب أن أمثل لأفعل ما تريد، وهذا يشق علي، بل إنه يستحيل، لذا توقف الآن، يتظاهر الجميع وكأنهم يهابونك ولكنهم في الحقيقة يضحكون عليك".

نظر جوني حوله، وساد صمت مطبق وكأنما الزمن توقف لوهلة، تقوس ظهر جوني مثل قط شرس.

"سحقًا لكم جميعًا".

بدأ جوني في إطلاق سيل من الشتائم واللعنات والسباب في جنون مطلق لا يمكن التعبير عنه بكلمات.

34

كان اسم جوني الحقيقي هو لي سو، وكانت والدته هي من أسمته هذا الاسم عند مولده، ومع ذلك قال جوني إنه لا يتذكر أن أحدًا ناداه بهذا الاسم قط، كما أنه لم يحب الاسم حيث يبدو

ضعيفًا، ومن بين العديد من الأسماء التي أطلقت عليه كان يفضل اسم جوني.

كانت ذكرى جوني الأولى لأشخاص كثيرين في مكان غريب يتحدثون لغة غير مألوفة، لم يعرف لمَ هو هناك، وكان الصخب يسيطر على كل شيء، عاش مع زوجين صينيين في عشوائيات حي ديه ريم، وقد أطلقوا عليه اسم زويانج، ولم يخرج من المنزل لسنوات وربما كان هذا سببًا في عدم العثور عليه سريعًا.

اختفى الزوجان المسنان أثناء حملة تفتيش لمكتب الهجرة، وانتقل جوني من منزل إلى منزل حتى انتهى به الأمر في ملجأ للأطفال، اعتقد الجميع أن جوني كان الحفيد البيولوجي للزوجين الصينيين ولم يكن هناك سجل رسمي يوثق تحركاتهم من وإلى الصين، لذا لم يُحقق في حالة جوني ولم يعثر على والديه الحقيقيين.

مكث جوني في الملجأ لبعض الوقت ثم تم تبنيه، وانتقل للعيش في منزل زوجين وحيدين ليس لديهما أطفال، وأسموه آن ذاك دونج جو، لم يكونا ميسوري الحال، لذا عندما رزقوا بطفل تخلوا عن جوني في غضون عامين، وعاد إلى الملجأ حيث تورط في بعض المشاكل التي دفعته إلى الدخول والخروج من مركز الأحداث عدة مرات، وقد اختار لنفسه اسم جوني في مركز (هوب جاردن) داخل الملجأ.

"هل هناك أحرف صينية لهذا الاسم؟".

"لا، لا أهتم بتلك الأمور المعقدة، لقد فكرت بالاسم للتو".

قالها وابتسم، كان الاسم كلاسيكيًا حقًا، وأنا أيضًا أحببته أكثر من زويانج ودونج جو ولي سو، كان أكثر اسم يليق بشخصية جوني.

***

فصل جوني لمدة أسبوع من المدرسة بسبب ما حدث في المحرقة، من يدري ماذا كان ليحدث إن لم تصل المعلمة في الوقت المناسب بتحرك شجاع من أحدهم، استدعى البروفيسور يون إلى المدرسة للقاء الواصي الشرعي لي دكتور شيم، عبر دكتور شيم عن استيائه وغضبه الشديد بصوت منخفض لكن صارم، كما عبر عن ندمه على السماح للبروفيسور يون بالتواصل معي في المقام الأول، وأحنى البروفيسور رأسه يأسًا بعدما حذرته إدارة المدرسة أنه إذا ظل سلوك جوني على هذا النحو فلن يكون لديه خيار آخر سوى نقله لمدرسة أخرى.

***

بعد عدة أيام وجدت نفسي أجلس مقابلًا لجوني في مطعم بيتزا، لم تعد عين جوني متوهجة، ربما لأن البروفيسور يون كان يجلس بجانبه، وكما علمت لاحقًا أن البروفيسور يون قد ضرب جوني لأول مرة بعد حادثة المحرقة، كان البروفيسور يون رجلًا نبيلًا، لذا جل ما فعله هو أنه ألقى الكأس التي كانت بيده لتصطدم

بالحائط وضرب جوني بسوط رفيع عدة مرات على ساقه، ومع ذلك كانت تلك الضربات وصمة عار على صورته التي طالما حافظ عليها كبروفيسور "مثقف"، كما أحدثت فجوة في علاقتهما كأب وابنه.

لا أعرف كيف كان شعوره عندما تعرض للضرب على يد والده والذي التقى به لأول مرة بعد نحو عقد من الزمن، وقبل أن تسنح لهم الفرصة للتعرف والتقارب بشكل أفضل.

كان رأي دكتور شيم أن بروفيسور يون رجل ذو مبدأ، فقد حافظ على إيمانه بعدم إيذاء الآخرين طوال حياته، لدرجة جعلته لا يستطيع تقبل عودة ابنه من لحمه ودمه لينتهك هذه القاعدة انتهاكًا تامًّا، فبدلًا من الشعور بالأسف لحال جوني، كان يشعر بالغضب لأن الابن الذي طال انتظاره جاء على هذه الحال، لذا اختار ضرب جوني والاعتذار للآخرين مرة تلو الأخرى، اعتذر للمعلمين، وللطلبة، ولي.

وكان هذا اللقاء بيني وبين جوني وجهًا لوجه في مطعم البيتزا نوعًا من الاعتذار أيضًا، طلب البروفيسور أغلى طبق بالقائمة، ومد ذراعيه على ركبتيه وظل يكرر بصوت عال كما لو كان يريده أن يصم أذني جوني ويحفظه حتى النخاع:

"أنا حقًّا آسف لما مررت به، هذا كله خطئي..".

ارتجف صوته وعجز عن النظر إليّ مباشرة.

رشفت الكولا بالماصة، بدا أنه لن ينهي حديثه أبدًا، وكلما طال الحديث زاد احتقان وجه جوني، قرقرت معدتي جوعًا وأصبحت البيتزا التي أمامي باردة ويابسة، قلت:

"يمكنك التوقف الآن، أنا لست هنا من أجل اعتذارك، أعتقد أن جوني من عليه أن يعتذر، فربما من الأفضل أن تتركنا وحدنا قليلًا لكي يفعل".

اتسعت عينا البروفيسور وبدا مندهشًا، كما رفع جوني حاجبيه أيضًا، سأل البروفيسور:

"هل ستكون بخير؟".

"نعم، سأتصل بك إذا حدث أي شيء آخر".

ابتسم جوني. وتنحنح البروفيسور يون عدة مرات وقال قبل أن ينهض ببطء.

"أنا متأكد أن لي سو آسف للغاية يا يون جيه".

"ولديه لسان أيضًا سيدي".

"بلى، إذًا استمتع بوجبتك، واتصل بي إذا حدث أي شيء".

"سوف أفعل".

ضغط البروفيسور بيده على كتف جوني بقوة قبل المغادرة، لم يرد جوني في حينها، ولكن بمجرد أن ابتعد والده، نفض كتفه بيده.

35

نفخ جوني بالكولا عبر الماصة فجعلها تفور، وشاح بنظره إلى النافذة، لم يكن هناك الكثير لينظر إليه في الخارج عدا بعض السيارات التي تمر من وقت لآخر، كانت هناك مطحنة فلفل معدنية فضية لامعة على الطاولة، يعكس شكلها المستدير ما حوله مثل عدسة واسعة، ورأيت وجهي في منتصفها، كنت أشبه ملاكمًا خسر مباراة دامية للتو، نظر جوني إلى انعكاس وجهي في المطحنة فالتقت أعيننا هناك. قال جوني:

مكتبة
t.me/soramnqraa

"شكلك ولا أروع!".

"الفضل لك".

"هل تعتقد أنني سأعتذر لك؟".

"لا أهتم حقًّا لذلك".

"إذًا لماذا طلبت أن يتركنا وحدنا؟".

"لأن والدك يتحدث كثيرًا، أردت فقط بعض الهدوء".

سعل سعلة خفيفة وكأنه يحاول كتم ضحك عفوي.

لم أستطع التفكير في أي شيء أقوله؛ لذا صرحت بما دار في ذهني فورًا:

"سمعت أن والدك ضربك".

ويبدو أن تلك لم تكن بداية موفقة للحديث حيث اتسعت حدقة جوني بشكل ملحوظ

"من قال هذا؟".

"والدك أخبرني بنفسه".

"اخرس أيها الوغد، ليس لدي أب".

"هذا لن يغير حقيقة أنه والدك".

"هل تريد أن أوسعك ضربًا؟ أخبرتك أن تسكت يا أحمق".

انتزع جوني مطحنة الفلفل وضغط عليها بقوة حتى ابيضت أطراف أصابعه، قلت:

"هل تريد جلب المتاعب هنا أيضًا؟".

"وهل هناك ما يمنعني؟".

"لا، سألت فقط من باب الفضول، أخبرني إن كنت تريد حتى أستعد أنا أيضًا".

سحب جوني كوب الكولا بالقرب منه وكأنه قد استسلم، وبدأ ينفخ فيه مرة أخرى، فنفخت أنا أيضًا في كوبي، أخذ جوني قطعة من البيتزا وقضم منها قضمة ومضغها أربع مرات، قبل

أن يبتلعها، ثم تجشأ بصوت منخفض، ففعلت تمامًا مثلما فعل، قضمة وأربع مضغات وتجشؤ بسيط، حدق جوني في وجهي وقد أدرك أنني أقلده، فتمتم:

"وغد أحمق".

فرددت:

"وغد أحمق".

حرك جوني شفتيه من اليمين لليسار ورآني أكرر الشيء نفسه، قام بتعبيرات وجه حمقاء وتفوه بكلمات فارغة مثل "بيتزا" "خراء" "مرحاض" "اغرب عن وجهي" وكنت أردد كل هذا مثل ببغاء أو مهرج، حتى إنني تنفست نفس عدد أنفاسه.

وبينما استمرت مسرحية التقليد الأعمى هذه بدأ جوني يمل، توقف عن الضحك، واستغرق وقتًا أطول في التفكير في حركات أكثر صعوبة، لم أهتم وأخذت أقلده، حتى صوت الهمهمات والزمجرات وعبوس حاجبيه ورعشة شفتيه، وبدا أن سلوكي هذا يعوق فكر جوني الإبداعي

"هذا يكفي".

لكنني لم أتوقف ورددت وراءه:

"هذا يكفي".

"قلت إن هذا يكفي يا معتوه".

"قلت إن هذا يكفي يا معتوه".

"هل هذا مضحك يا أبله؟".

"هل هذا مضحك يا أبله؟".

توقف جوني وبدأ بقرع أصابعه على الطاولة، وعندما حذوت حذوه توقف على الفور، صمت وعبس، وكان يحدق بي فقط، لعشر ثوان، عشرين ثانية، دقيقة، ثم اعتدل في جلسته ففعلت أنا أيضًا.

"حسنًا لنرى..".

"حسنًا لترى..".

"هل ستقلدني إن قلبت الطاولة وأطحت بالأطباق؟".

"هل ستقلدني إن قلبت الطاولة وأطحت بالأطباق؟".

"وهل ستفعل لو أخذت طبقًا مكسورًا وطعنت الجميع يا لعين؟".

"وهل ستفعل لو أخذت طبقًا مكسورًا وطعنت الجميع يا لعين؟".

"حسنًا".

"حسنًا".

"رائع! أنت من بدأت هذا".

"رائع! أنت من بدأت هذا".

"إذا تراجعت الآن فأنت مجرد جبان، أتسمعني؟".

"إذا تراجعت الآن فأنت مجرد..".

قبل أن أكمل جملتي كان جوني يطيح بالأطباق ويضرب الطاولة ويصرخ بالزبائن

"علام تنظرون أيها المعاتيه؟ ألذيذ هذا؟ مذاقه جيد؟ ادفسوا روؤسكم اللعينة في الطعام إذًا".

ألقى جوني بالبيتزا وزجاجات الصلصة وكل ما طالته يداه في كل اتجاه، فسقطت البيتزا على حذاء سيدة تجلس قبالة طاولتنا، وتناثرت الصلصة على رأس طفل بجوارنا.

"لماذا لا تقلدني أيها الأحمق؟".

اندفع جوني نحوي.

"أنت الذي بدأت كل هذا، فلماذا لا تقلدني الآن؟".

هرع النادل نحوه وحاول إيقافه وأخبره أنه لا يجب ترويع الزبائن هكذا، لكن ذلك لم يكن كافيًا لإيقاف جوني الذي رفع

يده لضرب النادل، بدأ الزبائن في التقاط صور ومقاطع بهواتفهم الذكية لما يحدث، وأجرى نادل آخر مكالمة ما، بينما صرخ جوني ثانية:

"قلدني يا ابن الأبالسة".

لكنني كنت بالفعل في طريقي للخروج من المطعم، واتصلت بالبروفيسور كما وعدت، ظهر البروفيسور قبل أن يرن الهاتف حتى، لا بد أنه كان يتسكع بالجوار تحسبًا لحدوث أي طارئ، فتح الباب ودلف إلى المطعم، وشاهدت أنا الفوضى من خارج النافذة، ارتعش ظهر البروفيسور وصفع وجه جوني بكفه الكبير مرارًا وتكرارًا، فتأرجح رأس جوني بين يديه، اكتفيت من المشاهدة واستدرت لأغادر، فلم يكن أي من هذا ممتعًا!

***

بالكاد أكلت بضع لقيمات في مطعم البيتزا سابقًا وكنت جائعًا، فاشتريت وعاء أودون[8] من مطعم للوجبات السريعة بالقرب من محطة مترو الأنفاق وذهبت لرؤية أمي، كانت نائمة بهدوء كالمعتاد، وكان أنبوب بول يتدلى منها إلى وعاء أسفل السرير، كانت قطرات البول الصفراء تقطر من الأنبوب واحدة تلو الأخرى، فاستدعيت الممرضة لتعتني بالأمر، أصبح وجه أمي دهنيًا وباهتًا،

8- أودون: حساء ياباني بالشعيرية المصنوعة من دقيق القمح. (المترجمة)

كانت لتصدم لو نظرت لصورتها في المرآة، وضعت منظفًا على قطنة مبللة ونظفت وجهها ثم وضعت لها مرطبًا.

خرجتُ من المستشفى ومشيت إلى المنزل، كانت أمسية هادئة للغاية، أخذت من المكتبة كتابًا يحكي قصة نمطية لصبي ترك المدرسة الثانوية ليعود لقريته، ويحكي أنه أراد أن يكون حارسًا يحمي الأطفال في حقول الشعير، وتنتهي القصة بهذا الصبي يلقي نظرة على شقيقته الصغيرة فيبي التي ترتدي معطفًا أزرق وتركب دوامة الخيل في الملاهي، لسبب ما أحببت هذه النهاية المفاجئة، ما دفعني لقراءة الكتاب مرارًا وتكرارًا.

كان وجه جوني يتداخل أحيانًا مع صفحات الكتاب، وتعبير وجهه عندما أمسك به والده يجوب أفكاري، لكني لم أستطع فهم هذا التعبير حقًا.

اتصل بي البروفيسور يون قبل أن أنام بقليل، ظل صامتًا ثم تنهد بعض التنهيدات العميقة الطويلة، وأخيرًا قال إنه سيغطي كل تكاليف علاجي، وإنه لن يسمح لجوني بالاقتراب مني بعد الآن.

36

"لا يوجد إنسان لا يمكن إنقاذه، هناك فقط من توقفوا عن محاولة إنقاذ الآخرين"، كانت تلك هي إحدى مقولات ب. ج.

نولان، أمريكي حكم عليه بالإعدام وأصبح لاحقًا كاتبًا شهيرًا، حكم على نولان بالإعدام بعد اتهامه بقتل ابنة زوجته، ودافع عن براءته طوال فترة سجنه التي كتب خلالها أيضًا مذكراته، وأصبحت لاحقًا من أكثر الكتب مبيعًا، لكنه لم يشهد نجاحها حيث نفذت عقوبة الإعدام في موعدها المحدد.

بعد سبعة عشر عامًا من إعدامه، اعترف القاتل الحقيقي، وثبتت براءة نولان، كان من ارتكب تلك الجريمة الشنعاء في حق ابنته هو جاره في المنزل المجاور.

كانت وفاة ب. ج. نولان مثيرة للجدل على عدة مستويات، فعلى الرغم من براءته من قتل ابنة زوجته، إلا أنه كان لديه تاريخ إجرامي حافل من عنف وسرقة والشروع في القتل، ووصفه الكثيرون بأنه قنبلة موقوتة، وأنه حتى لو تمت تبرئته لكان تسبب في جريمة أخرى عاجلًا أو آجلًا، على أي حال، بينما كان العالم يحكم بما يحلو له على رجل ميت بالفعل، بيعت كتب نولان مثل الخبز الساخن.

وصفت معظم كتاباته طفولته البائسة ومراهقته المشحونة بالغضب، لدرجة أنه تم حظرها في بعض الولايات لوصفه بالتفاصيل عن شعور طعن شخص بسكين أو اغتصاب امرأة، وكان يصف الأمر بهدوء مثلما يشرح كيفية تنظيم البقالة في الثلاجة أو أرشفة بعض الأوراق في ملف مرتب، "لا يوجد إنسان لا يمكن إنقاذه، هناك فقط من توقفوا عن محاولة إنقاذ الآخرين"..

ماذا كان يقصد بهذه الكلمات؟ هل كان يطلب المساعدة؟ أم كان هذا استياء عميقًا؟

هل كان جوني مثل ب. ج. نولان؟ هل كان الرجل الذي طعن أمي وجدتي مثله؟ أم أنا من هو مثله؟

أردت أن أفهم العالم بشكل أفضل قليلًا، ولهذا كنت بحاجة إلى جوني.

37

كان الدكتور شيم دائمًا هادئًا ومتقبلًا لما يقوله الآخرون، وكان كذلك عندما أخبرته بما حدث مع جوني، كان هذا هو اليوم الأول الذي حكيت له قصتي بالتفصيل، وأخبرته باللوزة صغيرة الحجم، ومستويات رد الفعل المنخفضة لقشرتي الدماغية، والتدريب الذي دربته لي أمي، أنصت إلى حديثي ثم شكرني على المشاركة.

"لا بد أنك لم تشعر بالخوف عندما هاجمك جوني، لكنك تعلم أن هذا لا يعني أنك كنت شجاعًا، أليس كذلك؟ اسمح لي أن أكون واضحًا، إذا حدث ذلك مرة أخرى، فلن أتساهل معه أبدًا، لأنها مسؤوليتي أيضًا، وأريدك أن تتجنبه من الآن فصاعدًا".

وافقت، فهذا في الواقع كان ما تعلمته من أمي، لكن عندما لا يكون هناك مدرب فغالبًا ما يتراخى اللاعب، وقد لعب عقلي

بطريقته الخاصة، أكمل دكتور شيم:

"من الجيد أن تشعر بالفضول تجاه زملائك الآخرين بالطبع، أنا فقط لا أحبذ فكرة أن جوني هو من يثير فضولك".

"عادة تحذرني من التسكع مع جوني، أليس كذلك؟".

"ربما، أنا متأكد أن والدتك كانت لتفعل هذا أيضًا".

"أشعر أنني أريد أن أعرف عنه المزيد، هل هذا خطأ؟".

"هل تقصد أنك تريد التقرب منه؟".

"ماذا يعني أن نكون قريبين بالضبط؟".

"أن تتحدثا وجهًا لوجه مثلًا، كما نفعل نحن الآن، نتناول الطعام ونتبادل الأفكار ونقضي وقتًا معًا دون تكلف، وهكذا نصبح أصدقاء".

"لم أكن أعلم، أننا أصدقاء".

"هاها لا تنكر هذا، على أي حال فاللقاء نصيب، وستلتقي بمن كُتب لك أن ترافق، ومع الوقت ستعرف ما هي العلاقة التي ستجمعكما".

"هل لي أن أسأل لماذا تمنعني؟".

"أحاول ألا أحكم على الناس بسهولة، فكل شخص مختلف، خاصة في سنّكم هذه".

***

كان دكتور شيم في الأصل جراح قلب في مستشفى جامعي كبير، أجرى العديد من العمليات الجراحية وكانت النتائج رائعة، ومع ذلك، بينما كان مشغولًا بقلوب الآخرين، انفطر قلب زوجته، كانت دائمة الصمت ولم يكن لديه وقت للاهتمام بها، في أحد الأيام ذهبوا أخيرًا في رحلة بعد تأجيل قد طال، كان منتجعًا على جزيرة نائية تطل على المحيط الأزرق، نظر الدكتور إلى غروب الشمس وهو يحتسي كأسًا من النبيذ الأبيض، وكل ما كان يجوب بخاطره هو جدول أعماله بعد العودة من الإجازة، وقبل أن تغرق الشمس في المحيط مباشرة، غفا، واستيقظ لاهثًا على صوت شهقة مفاجئة، كانت زوجته تمسك صدرها وعينها مفتوحة على مصراعيها، كانت الإشارات الكهربائية لقلبها تتعطل دون سابق إنذار، قفز نبضها إلى خمسمئة نبضة في الدقيقة، حدث كل شيء في لمح البصر وكل ما أمكنه فعله هو البكاء والربت على يد زوجته، وإخبارها أن تتماسك وأن كل شيء سيصبح على ما يرام.

توقف قلب زوجته تمامًا بعد نوبة نبض جامحة، لم يكن هناك صاعقة كهربائية، ولم يهرع أحد لمساعدته عندما صرخ "كود أزرق"[9]، ظل دكتور شيم يكبس صدر زوجته الهامد مثل طبيب مبتدئ، وعندما وصلت سيارة الإسعاف بعد ساعة، كان جسد زوجته باردًا ومتيبسًا. وهكذا تركته زوجته إلى الأبد، وترك هو

9- الكود الأزرق: رمز طبي يشير إلى أن هناك مريضًا يحتاج إلى إنعاش أو في حاجة إلى عناية طبية فورية. وغالبًا ما يكون ذلك نتيجة لتوقف التنفس أو السكتة القلبية. (المترجمة)

مشرطه منذ ذلك الحين، وكل ما فعله هو التفكير في مدى حبه لها وكيف لم يستطع التعبير عنه، لم أكن واثقًا أبدًا من قدرته على رؤية أي قلب نابض في جسد شخص آخر.

لم يرزقوا بأطفال، لذا أصبح دكتور شيم وحيدًا تمامًا، وكان عندما يتذكر زوجته تخطر بباله رائحة الخبز اللذيذة، كانت دائمًا ما تخبز له بنفسها، وكان طعم الخبز يشعره بالحنين إلى الماضي، مثل طفولة منسية أو ذكرى عابرة يصعب تفسيرها، حتى في الأيام المشحونة الحافلة كان الخبز اللذيذ والساخن دائمًا على الطاولة كل صباح، بدأ دكتور شيم في تعلم الخبيز، وكان يعتقد أن هذا هو الشيء الوحيد الذي يمكنه فعله لتكريم ذكرى زوجته، لم يكن الأمر منطقيًا، فما المغزى من خبيز لم تعد زوجته موجودة لتتذوقه؟

لم أكن أعرف أن أمي والدكتور شيم كانا يتحدثان كثيرًا، عرفته أمي كمستأجرة ثم زبونة مخلصة وتحدثا في شتى المواضيع، وأكثر موضوع كانت تتطرق له أمي هو وصيتها له بأن يعتني بي جيدًا حتى أصبح بالغًا في حالة حدوث شيء لها، كانت أمي نادرًا ما تتحدث عني مع الآخرين، وبذلت قصارى جهدها في الحفاظ على سرية حالتي، لم تكن أمي التي أعرفها هي الأم التي تشارك تفاصيل حياتي وحياتها مع شخص آخر، لكن كان من المريح أن أعرف أن لديها هذا الشخص.

38

وفقًا لمقولة جدتي، فإن المكتبة عالم مكتظ بالسكان، يتعايش به عشرات الآلاف من المؤلفين جنبًا إلى جنب أحياء كانوا أو أمواتًا، لكن الكتب هادئة، وتظل صامتة حتى يقلب أحدهم صفحاتها، حينها فقط تبوح بمكنوناتها، بهدوء وروية، تمامًا كما أريد.

***

ظننت أنني سمعت حفيفًا بالأرجاء، لأجد فتى نحيفًا يتوارى خلف الأرفف بياقة قميص مرفوعة، للوهلة الأولى، لاحظت أثر جرح على شكل نجمة برأسه، ألقى بمجلة للبالغين على الخزانة، صُورت على غلافها امرأة شقراء ذات شعر مجعد مثل لبدة أسد تجلس فوق دراجة بخارية وترتدي سترة جلدية بالكاد تساع صدرها المتفجر، وتفرج شفتيها قليلًا وتنحني إلى الخلف.

"كم ثمن هذه الخردة البالية؟ سأشتري نسخة وأضمها لمجموعتي من التحف النادرة".

كان جوني.

"عشرون ألف وون، التحف غالية كما تعلم".

نبش جوني جيوبه متذمرًا وأخرج بعض العملات المعدنية وفواتير قديمة ثم قال:

"يا أنت".

ثم وضع مرفقه فوق الخزينة واتكأ بذقنه عليها وحدق بي قائلًا:

"سمعت أنك إنسان آلي، لا تشعر بأي شيء".

"ليس تحديدًا".

استنشق جوني عدة مرات ثم أكمل:

"بحثت عنك قليلًا، عن دماغك الأخرق على وجه الدقة".

نقر رأسه، فسمعت صوتًا يشبه صوت النقر على بطيخة ناضجة، أكمل جوني:

"لا عجب في ذلك، كنت أعلم أن بك شيئًا غريبًا، كدت تصيبني بالجنون بلا سبب".

"طلب مني والدك الاتصال به إذا اقتربت مني".

استشاطت عينا جوني على الفور:

"لستَ بحاجة لذلك".

"بل يجب أن أفعل، لأني وعدته".

التقطت الهاتف، وقبل أن أرفعه إلى أذني، أطاح به جوني ليسقط على الأرض.

"ألا تفهم أيها الغبي؟ أخبرتك ألا تفعل، لن ألمسك".

نهض جوني وتجول بلا هدف في المكتبة، وقلب في الكتب بلا سبب، ثم سأل بصوت جهوري من بعيد:

"هل تألمت عندما ضربتك؟".

"بالطبع".

"قلت إنك إنسان آلي، لكنك كذلك لست مجرد صفيح".

"حسنًا..".

هممت بالرد لكن طالما كان من الصعب عليّ وصف حالتي، خاصة بعد أن ذهبت أمي التي كانت تساعدني في التعبير. قلت في النهاية:

"يمكنني مثلًا الشعور بالبرد والحر، والجوع والألم، وإلا لما كنت على قيد الحياة!".

"هل هذا كل ما تشعر به؟".

"أشعر بالحكة أيضًا".

"أتضحك عندما تدغدغ؟".

"ربما.. لست متأكدًا لأنه مضى وقت طويل منذ أن دغدغني أحد".

نفخ جوني بصوت عالٍ كبالون فرغ لتوه من الهواء، ولم أدرِ متى أصبح أمام الخزينة مجددًا.

"هل لي أن أسأل سؤالًا؟".

رفعت كتفي، وأشاح جوني بوجهه متجنبًا النظر إلي:

"سمعت أن جدتك ماتت، هل هذا صحيح؟".

"نعم".

"ووالدتك شجرة أكثر منها إنسانًا الآن".

"حسنًا، يمكننا قول هذا".

"سمعت أن شخصًا مختلًا طعنهما أمام عينيك".

"صحيح".

"وأنت فقط وقفت تشاهد؟".

"نعم هذا ما انتهى به الأمر".

اشرأب جوني وحدّق بي.

"يا لك من جبان! تترك والدتك وجدتك تحتضران أمام عينيك ولم تحرك ساكنًا؟ كان يجب أن تلقن هذا الوغد درسًا".

"لم يكن لدي وقت، فقد مات على الفور أيضًا".

"سمعت ذلك، حتى لو لم يمت، لم تكن لتحدث فرقًا أو تفعل أي شيء يذكر، أيها الخسيس".

"ربما".

هز جوني رأسه متعجبًا:

"ألا يزعجك حديثي؟ كيف لتعبير وجهك ألا يتغير البتة؟ ألا تتذكرهما؟ أمك وجدتك؟".

"أفكر بهما معظم الوقت، وأتذكرهما كثيرًا"

"وهل ما زلت تنام في الليل؟ كيف يمكنك الذهاب إلى المدرسة؟ اللعنة! لقد شاهدت عائلتك تنزف حتى الموت".

"لا أعلم، أنت في النهاية تمضي قدمًا في حياتك، كنت متأكدًا أن الآخرين سيعودون إلى حياتهم الطبيعية أيضًا، يأكلون وينامون، ربما سأستغرق أنا وقتًا أطول، لكن قُدر للبشر أن يستمروا في العيش".

"ما أنبهك يا أبا العريف! لو كنت مكانك، لما استطعت النوم كل ليلة من الغضب، في الواقع لم أستطع النوم الأيام القليلة الماضية بعدما سمعت ما حدث لهما، لو كنت مكانك لقتلته بيدي".

"آسف لأنني سببت لك الأرق".

"هل قلت آسف؟ سمعت أنك لم تذرف دمعة واحدة عندما ماتت

جدتك، وتتأسف لي؟ يا لك من وغد عديم الإحساس".

"معك حق، لقد تدربت على قول إنني آسف في المواقف التي تستدعي ذلك".

مصمص جوني شفتيه وقال:

"لا أستطيع فهمك يا رجل".

"أنا متأكد من أن الجميع يوافقونك الرأي في هذا، حتى لو لم يصارحوني بها جهرًا، طالما أخبرتني أمي بذلك".

"يا لك من أحمق..".

قالها جوني وسكت، ساد الصمت لوهلة استرجعت خلالها حديثي السابق مع جوني، ثم بدأت أنا الحديث هذه المرة:

"لكن يبدو أن حصيلتك اللغوية ضئيلة".

"ماذا؟".

"معظمها شتائم وسباب، لكن حتى ألفاظ سبابك محدودة، لغتك فقيرة جدًا، ستساعدك قراءة الكتب على إثراء مفرداتك، ويمكنك حينها التحدث بشكل أفضل مع الآخرين".

"هذا ما ينقصني، نصيحة من روبوت".

ضحك جوني عبثًا وأكمل:

"سوف آخذ هذا، وقد أعود ثانية إذا شعرت بالملل".

لوح بالمجلة التي اختارها فاهتز صدر فتاة الغلاف أيضًا، واتجه للباب مغادرًا، وقبل أن يغلق الباب استدار وقال:

"بالمناسبة، لست مضطرًا للاتصال بالأفّاق الذي يدّعي أنه والدي، فأنا ذاهب للبيت الآن على أي حال".

"حسنًا، أرجو ألا تكون تلك كذبة، لأنك حتى لو كذبت فلن أعرف الفرق".

أغلق الباب فاندفع الهواء داخل المكتبة، كان الهواء يحمل رائحة نسمات الصيف.

39

لم يبلغ مطعم البيتزا المدرسة بما حدث، لا بد أن البروفيسور يون قد عوضهم جيدًا عن الخسائر، لكن شائعات عن الأمر انتشرت على ألسنة بعض الطلبة، كانت الأجواء مشحونة، لكن بعد عدة أيام، أدرك الجميع أنه لن يكون هناك المزيد من الحوادث، أبقى جوني رأسه منخفضًا ولم يرفع عينه في أي شخص، وانضم مساعدوه إلى مجموعات أخرى ولم يقتربوا منه ثانية، وانتهى الأمر بجوني يأكل وحيدًا في إحدى زوايا المطعم، وينام خلال الدروس تفاديًا لنظرات الآخرين، ولم يستغرق الأمر وقتًا طويلًا حتى يتحول جوني من

الفتى المثير للمتاعب إلى الفتى المنبوذ، وعندما ابتعد جوني عن ساحة الاهتمام، وكذلك أنا، تحول اهتمام الطلبة لأشياء أكثر إثارة وغرابة، وكان الجميع آن ذاك يتحدث عن تلك الفتاة التي اجتازت الجولة الأولى من اختبار المواهب المتلفز.

كنت أنا وجوني رسميًّا وحسب تصنيف الجميع "غريمين"، ولم يكن ذلك غريبًا نظرًا لما دار بيننا، لذا وباتفاق ضمني تجاهلنا أنا وجوني بعضنا بعضًا في المدرسة، ولم نتحدث ولا نتقابل وتحاشينا حتى النظر لبعضنا، كنا مثل عناصر في خلفية المدرسة مثل ممحاة وطباشير، لا يمكن أن يكون أي منها حقيقيًّا.

40

"اللعنة، هذا فني للغاية، لا يمكنني رؤية شيء مع كل تلك الملابس المتحفظة".

رمى جوني بالمجلة التي أخذها سابقًا على الخزينة متذمرًا، كانت لهجته وسلوكه كما كانوا من قبل لكن أضعف قليلًا، فقد وضع المجلة على الخزينة بدلًا من إلقائها على الأرض، وتحدث بصوت منخفض نسبيًّا، وكانت وضعيته أفضل وكتفاه مستقيمتان.

تعرضت رغمًا عني لغارات جوني المفاجئة والمتكررة ومعدومة الهدف، كان يمر بالمكتبة كل مساء تقريبًا، ولم تكن مدة زيارته ثابتة، أحيانًا كان يتمتم ببعض الترهات ويغادر، وأحيانًا أخرى

يتصفح الكتب بهدوء أو يحتسي مشروبًا معلبًا، ربما كان سبب تلك الزيارات المتكررة أنني لا أسأله أبدًا عن أي شيء.

"أنا آسف لأنها لم تعجبك، لكن سياستنا لا تسمح بإرجاع ثمن الكتب المباعة، إلا إن كانت تالفة عند الشراء، وقد ابتعت هذه المجلة منذ وقت طويل".

تنهد جوني عاليًا.

"ومن طلب استرداد المال؟ أعدتها فقط لأني لا أرغب بتركها في المنزل، فلتحتفظ بالمال واعتبره ثمن استعارتها".

"هذه مجلة كلاسيكية، أعتقد أنه توجد أعداد أكثر مجونًا".

"هل تصفحت للتو مجلة كلاسيكية؟! ربما علي أن أضيفها لقائمة قراءاتي إذًا".

ضحك جوني على دعابته، لكن عندما رأى أنني لم أفعل، سرعان ما دارى ابتساماته، دائمًا ما كان الضحك على مثل تلك الدعابات هو الأصعب بالنسبة لي، حتى لو أرغمت نفسي على ذلك، فأفضل ما يمكنني فعله هو رفع زوايا فمي، فتبدو ابتسامة مصطنعة للغاية، قد يساء فهمها على أنها استخفاف بالشخص الآخر.

كانت مشكلتي مع الضحك هي سبب وصمي بالبرود والتبلد منذ أن كنت في المدرسة الابتدائية، حتى أمي التي طالما أكدت على أهمية الابتسام في المواقف الاجتماعية المختلفة، سئمت من الشرح

والتوضيح كل مرة، لذا لجأت لحلول أخرى، طلبت مني التظاهر بالانشغال في أي أمر آخر أو عدم سماع الدعابة إذا لم أفهمها، لكن في معظم الأحيان كان يتبع ذلك صمت طويل ومحرج، ولا أجد ما أقوله، بينما مع جوني لم أكن بحاجة لكل هذا حيث واصلنا حديثنا عن الكلاسيكيات.

"نشر هذا العدد عام 1995، ونعتبره مثل أمهات الكتب، لذا فهو نادر، لا يدرك الكثير من الناس قيمة تلك الأشياء، لأنها حقًّا كلاسيكية".

"إذا رشح لي عددًا آخر مثل هذا، كلاسيكي".

"كلاسيكي.. من هذه المجلات؟".

"نعم، كلاسيكي حقيقي كما تقول".

كنت أخفي مثل تلك الكلاسيكيات في مكان سري، قدت جوني إلى رف بالزاوية، وأخرجت كتابًا مكسوًّا بالغبار من عمق الرف، كانت به صور إباحية التقطت في نهاية عصر مملكة جوسون[10]، لأرستقراطيين من طبقة النبلاء يعانقون فتيات من الكيسينج[11]

10- مملكة جوسون: مملكة كورية تأسست بعد سقوط مملكة كوريو واستمرت من عام 1392 لعام 1897. (المترجمة)

11- طبقة الكيسينج: اسم طبقة اجتماعية كان يطلق على نساء المتعة اللاتي يعملن في الترفيه عن طبقة النبلاء (يانجبان) والملوك في ممالك كوريا القديمة. عرفن بمواهبهن في الفنون والشعر والغناء ولكن تلك المواهب تم تجاهلها بسبب تدني طبقتهن الاجتماعية. ولعبن دورًا مهمًّا في إثراء التراث الثقافي لمملكة جوسون. (المترجمة)

بأوضاع مختلفة، كانت الصور جريئة وفاضحة، وبعضها يظهر عوراتهم، وكانت مختلفة عن الأعداد الحديثة حيث كانت الصور بالأبيض والأسود وكان العارضين يرتدون الهانبوك.[12]

كان جوني يجلس مقرفصًا في الزاوية عندما ناولته المجلة، وبمجرد أن قلب الصفحة فغر فاه.

"يا إلهي! عرف أسلافنا من أين تؤكل الكتف، أنا سعيد بهم".

"لفظة سعيد لا تستخدم في هذا السياق، يمكنك استخدام لفظة فخور، عليك حقًا قراءة المزيد من الكتب".

"كفى هراء".

سبّني جوني وقلب الصفحة، أخذ يمعن النظر في كل إنش من الصفحة حتى سال ريقه، ثم هز كتفيه كمن يشعر بالقشعريرة، وارتجفت ساقه وتخبطت.

"كم ثمن هذه؟".

"غالية جدًا، إنه إصدار خاص، في الواقع هي نسخة عن إصدار خاص، ولكن لا تزال قيمة".

"ومن سيبتاع تلك الخردة؟".

12- الهانبوك: الزي التقليدي الكوري. ويرجع أصله إلى الممالك الكورية القديمة. ويلبس الآن في المناسبات الخاصة مثل حفلات الزفاف والأعياد التقليدية والجنائز. (المترجمة)

"من يعرف قيمة الكلاسيكيات حقًا سيبحث عنها، ولن أبيعها إلا لهاوي كلاسيكيات حقيقي، لذا عليك أن تتعامل معها بحرص".

أغلق جوني المجلة، وتصفح المجلات الأخرى على الرف مثل "بنت هاوس" و"بلاي بوي" و"صانداي سول"، كانت كلها أعدادًا نادرة وغالية.

"من اشترى كل هذا؟".

"أمي".

"لديها ذوق رفيع" قالها جوني ثم أضاف سريعًا.

"هذا إطراء، أعني أنها ماهرة في عملها".

41

كان جوني مخطئًا، كانت والدتي أبعد ما يكون عن كونها سيدة أعمال ناجحة، كانت تأخذ جميع قراراتها -باستثناء تلك المتعلقة بي- بناء على نزوات رومانسية أو حالتها المزاجية، وخير دليل على ذلك هو مكتبة الكتب المستعملة هذه، ففي بداية افتتاح المكتبة لم تفكر في نوع معين من الكتب، فقررت أن تكون مثل أي مكتبة للكتب المستعملة، وأن يكون لدينا مجموعة متنوعة من الكتب الفنية والأكاديمية وكتب الاستعداد للاختبارات وكتب الأطفال والكتب الأدبية، بعد ذلك قررت أمي شراء ماكينة قهوة صغيرة

للمكتبة بما تبقى من المال، فإن رائحة الكتب والقهوة تصنعان مزيجًا مثاليًّا، أو على الأقل هكذا اعتقدت أمي.

لكن كان لجدتي رأي آخر، فقالت متذمرة:

"فلتتعفن القهوة في الجحيم".

كانت الجدة بارعة في إثارة أعصاب أمي ببعض كلمات فقط، وكانت أمي غاضبة من أن ذوقها الأنيق يتعرض للسخرية، بينما حافظت جدتي على برود أعصابها وقالت:

"فلنضف بعض الإثارة".

كادت أمي تستشيط غضبًا، وهنا شرعت جدتي باستعراض مهاراتها في الإقناع.

"كما تعلمين، فإن أفضل أعمال كيم هونج دو[13] كانت لوحات التشونهوا[14]، وكلما مر عليها وقت زادت قيمتها، وأصبحت من الكلاسيكيات، حاولي العثور على كتب مثل تلك الأشياء".

ولم تنسَ الجدة إنهاء جملتها بالسباب المعتاد:

"اللعنة على ماكينات القهوة".

13- كيم هونج دو: رسام كوري عاش في عصر جوسون. كان أحد أعمدة التيار الفني في عصره. واشتهر بلوحاته التي تجسد حياة عامة الشعب في ذلك العصر. (المترجمة)

14- تشونهوا: لوحات فنية مثيرة تعود لمملكة جوسون. (المترجمة)

فكرت أمي بجدية في الأمر لبضعة أيام ثم قررت أن تأخذ برأي جدتي، بحثت والدتي على الإنترنت عن أشخاص يريدون بيع مجلات قديمة وتمكنت أخيرًا من إبرام صفقة مع رجل غريب في محطة يونجسان، ورافقتها أنا وجدتي لمساعدتها في حمل الكتب الثقيلة، اندهش الرجل الأربعيني عندما رأى امرأتين وطفلًا يشترون مجلات إباحية، وسرعان ما اختفى بعدما حصل على أمواله، كانت المجلات مربوطة بخيط رفيع وكانت كل الأغلفة مكشوفة، لذا رمقنا الجميع في مترو الأنفاق أثناء عودتنا إلى المنزل بنظرات ريبة وتعجب.

قالت جدتي ضاحكة:

"لا بد أن يمعنوا النظر، فهناك فتاة عارية مقيدة بحبل".

ردت أمي مستاءة:

"لا تتظاهري بأن لا علاقة لك بذلك، كان الأمر برمته وليد أفكارك".

ومنذ ذلك الحين، أبرمنا بعض الصفقات المباشرة، وتمكنا من شراء بعض الأعداد النادرة مثل التي عرضتها على جوني، وبعد الكثير من الصفقات والعمل أكملنا "مجموعة الجدة الكلاسيكية".

لسوء الحظ، خابت توقعات جدتي هذه المرة، كنت أحيانًا أرى رجالًا في منتصف العمر يتجولون في قسم الجدة، لكن لم يكن الناس في حاجة لشراء محتوى مثير في هذا العصر من مكتبة مثلما

كانوا يفعلون مجازفين بسمعتهم في فترة شباب أمي، لتوافر الكثير من الطرق الأخرى للوصول إلى هذا النوع من الترفيه بسهولة وفي المنزل أو أينما يفضلون، لذا كان من الصعب أن نرى زبونًا يشتري مجلة إباحية من امرأة في مكتبة كتب مستعملة عام 2010، باستثناء مالك متجر الشرائط والفيديو الذي اشترى بعضًا منها لإضفاء لمسات على التصميم الداخلي لمتجره، وهكذا لم تُبَع الكلاسيكيات وسرعان ما وضعت بعيدًا في الزاوية، كان جوني أول من يشتري عددًا منها في وضح النهار.

42

في ذلك اليوم، اشترى جوني عدة مجلات أخرى بحجة جمع الكلاسيكيات، وعندما سألني عما إذا كان بإمكانه استعارتها، أكدت له مرة أخرى أن هذا مكان لبيع الكتب وليس للاستعارة.

"حسنًا أيها الأحمق، سأعيدها إليك على أي حال، لا طائل من وجودها بالمنزل".

بدا جوني أكثر انفتاحًا، على الرغم من سبابه الذي ظل على حاله، وبعد أيام قليلة عاد جوني بالمجلات مرة أخرى، أخبرته أني لست بحاجة إليها، لكن جوني أصر أن آخذها بعدما سبني

"محتوى متحفظ للغاية، وبعيد جدًّا عن ذوقي".

أدركت أنه جدال غير مجدٍ فأخذت منه المجلات، ومع ذلك لاحظت أن هناك بعض صفحات مفقودة من الداخل، وبعضها مقطوع، كان العنوان الرئيس للمجلة -والذي قد نجا- هو بروك شيلدز، حدق بي جوني لوهلة وكأنه يعرف بم أفكر، قلت له:

"كان هذا العدد نادرًا حقًّا، لا يوجد العديد من المجلات تعرض صور بروك شيلدز، خاصة في أوج مجدها".

"هل لديك المزيد من صورها؟".

سألته مشيرًا إلى جهاز الحاسوب فوق المنضدة:

"هل تريد المزيد؟".

ثم كتبت بمحرك البحث "بروك شيلدز" وضغطت على زر البحث في الصور.

ظهرت أمامنا صور بروك شيلدز من الطفولة إلى الشباب، وبدا أن جوني كان متيمًا بما يرى.

"كيف لإنسان أن يكون بهذا الجمال؟".

أخذ جوني يقلب في الصور مشدوهًا، حتى شهق فجأة وقال:

"ما هذه الصورة؟".

كانت صورة بعنوان "بروك شيلدز مؤخرًا"، كانت صورة بروك شيلدز في الخمسينيات من عمرها، وقد ملأ وجهها المجعد الشاشة

بأكملها، لم يختفِ أثر جمال شبابها تمامًا، لكن لا بد أن جوني لم يرَ ذلك.

"هذه أكبر صدمات حياتي! لقد دمرت كل خيالاتي تمامًا، لم يكن من المفترض رؤية هذا".

"لم تكبر في السن بإرادتها، ولا يستطيع أحد إيقاف الزمن، يمر الناس بتجارب عديدة في الحياة تؤدي للعجز".

"ومن لا يعرف هذا، بربك! كل كلمة تقولها تشبه ثرثرة رجل مسن".

"هل يجب أن أتأسف الآن؟".

"آه يا رجل! لماذا فعلت هذا بي.. لماذا تغيرت بروك هكذا.. لماذا أريتني هذه الصورة يا وغد؟ كل هذا بسببك".

في ذلك اليوم نفث جوني غضبه بي تارة وببروك شيلدز تارة أخرى، وغادر دون أن يشتري شيئًا.

***

عاد جوني بعد يومين قائلًا:

"كنت فقط أتساءل".

"عم؟".

"تفقدت صور بروك في الأيام القليلة الماضية، ليست الصور القديمة بل صور حديثة".

"وهل جئت فقط لتخبرني بذلك؟".

"أصبحت بغيضًا مؤخرًا يا صاح".

"لم أقصد ذلك، لكنني آسف لو وصلك كلامي على هذا النحو".

"على أي حال، النظر إلى صور بروك شيلدز شغل ذهني بالكثير من الأفكار".

"مثل ماذا؟".

"القدر والزمن".

"يا لها من مفاجأة أن تستخدم مثل تلك المفردات".

"يا لك من أحمق، أتعلم أنك تجعل نفسك أحمق بأقل مجهود؟".

"لم أكن أعلم ذلك".

"لذكائك الخارق!".

"شكرًا".

انفجر جوني ضاحكًا فجأة، هاهاهاها، خمس قهقهات في نفس واحد، لم أكن أعرف ما المضحك فيما قلته، لذا غيرت الموضوع قائلًا:

"هل تعرف أن الشمبانزي يضحك والغوريلا أيضًا؟".

"حسنًا، أيًّا كان".

"هل تعرف ما الفرق بين ضحكهم وضحك الإنسان؟".

"لا أهتم! إذا كنت تحاول التباهي فأسرع وقل السبب".

"يمكن للإنسان أن يضحك كثيرًا من نفس واحد، لكن القردة تضحك ضحكة واحدة مع كل نفس، مثل التنفس من البطن ها ها ها".

"إذًا لا بد أن لديها عضلات بطن قوية".

قالها جوني وضحك مجددًا، ثم أخذ شهيقًا عميقًا وتبعه بزفير طويل كأنه يريد أن يهدئ نوبة ضحكه، بدا وكأنه تغير فجأة، أو طرأ خطب ما في لحظة، سألته:

"لكن ماذا قصدت بالوقت والزمن".

شعرت بغرابة بعض الشيء لأنني لم أتطرق لمثل هذه المواضيع مع جوني من قبل، لكنني لم أشعر بحاجة لإنهاء الحديث.

"من الصعب تفسير هذا.. أعني، هل كانت بروك شيلدز تعلم عندما كان صغيرة أنها سوف تتقدم في السن وتبدو مختلفة تمامًا عن أيام صباها؟ المرء يعلم بالطبع أنه سيكبر ويتغير، لكن من الصعب تخيل كيف سيحدث هذا، راودتني فجأة هذه الفكرة، ربما

كان الغرباء في الشارع، مثل النساء المشردات الهائمات في مترو الأنفاق، أو المتسولين الذين يزحفون في الشارع لفقدان أطرافهم.. ربما بدوا مختلفين تمامًا في صباهم".

"سدهارتا كان لديه نفس أفكارك هذه، فغادر القصر".

"سد..سد من؟ لقد سمعت ذلك الاسم قبلًا".

هربت مني الكلمات وحاولت صياغتها بطريقة لا تثير أعصاب جوني:

"نعم، فهو مشهور قليلًا".

لا بد أنني نجحت حيث لم يتفاعل جوني كثيرًا، فقط نظر للأفق وخفض صوته وأكمل:

"ما علينا.. لذا ربما يومًا ما، سنكون أنا وأنت أيضًا أشخاصًا لم نتخيلها أبدًا".

"أعتقد ذلك، كيفما مضت، هكذا هي الحياة".

"كلما اعتقدت أنك طبيعي، تتحدث كعجوز أحمق ثانية، لقد عشنا نفس رقم السنين يا أنت".

"عددًا وليس رقمًا".

رفع جوني قبضته ثم خفضها فقط من باب التهديد وقال:

"الغريب أنني لا أريد أن أرى مثل هذه المجلات الكلاسيكية بعد الآن، لم تعد ممتعة، وتذكرني أن كل جميل سيذبل، لن يفهم الحمقى مثلك تلك الأشياء".

"إذا فقدت اهتمامك ببروك شيلدز، فيمكنني اقتراح كتاب آخر قد ينفعك".

"ناولني إياه".

قالها جوني بفتور، ناولته كتاب "فن الحب" لمؤلف أجنبي، أعاده لي بعد بضعة أيام فقط، وأخبرني أن أكف عن الهراء، لكني ما زلت أرى أن ترشيحي كان ذا معنى.

43

مرت الأيام وهل شهر مايو، وبحلول مايو كنت أعتاد على الكثير من الأشياء، وتختفي رهبة العام الدراسي الجديد، قيل إن مايو هو ملك فصول السنة، لكني لم أومن بذلك، فالأصعب فعلًا هو الانتقال من الشتاء للربيع، وذوبان الأرض المتجمدة حتى تسمح للبراعم الجديدة أن تتفتح على الغصون الذابلة، وهنا تكمن كل الصعوبة، بينما الصيف يخطو بضع خطوات متلكئًا ومدعومًا بمجهود الربيع.

لذلك أعتقد أن شهر مايو كان أكثر شهور السنة كسلًا، ومبالغًا

في تقديره، كان يذكرني أيضًا كم أنا مختلفًا عن بقية العالم، فكل شيء يتلألأ وينبض بالحياة، بينما أبقى أنا وأمي طريحة الفراش في أجواء جافة ورمادية مثل يناير أبدي.

***

كنت أفتح المكتبة فقط بعد انتهاء اليوم الدراسي، لذلك لم ترتفع المبيعات كالمتوقع، تذكرت عندما قالت جدتي إن علينا إغلاق المكتبة لو لم يسِر العمل على ما يرام، كنت أنظف وأمسح الغبار كل يوم، لكن المكان الذي فقد شخصين بدا وكأنه هرِم بالفعل، إلى متى سأتحمل التعامل مع كل هذا الفراغ وحدي؟

في أحد الأيام، سقطت الكتب التي كنت أحملها وأنا أمشي بين أروقة المكتبة وأصابت أناملي، لم يكن هذا يحدث ذلك كثيرًا في أجواء المكتبة الرطبة، لكن حظي العاثر أوقعني في موسوعة من ورق سميك وحاد، أخذت أحدق بهدوء في قطرات الدم المتساقطة على الأرض مثل حبر الأختام.

"ماذا تفعل يا أبله؟ أنت تنزف".

كان هذا جوني، لم أكن أعلم حتى متى دخل، لكني فجأة رأيته بجواري.

"ألا تؤلمك؟".

اتسعت عين جوني، وسرعان ما سحب منديلًا ورقيًّا وناولني إياه.

"أنا بخير".

"كفى هراء، إذا كانت يدك تنزف فبالطبع تؤلمك، هل أنت حقًّا بهذا الغباء!".

بدا جوني غاضبًا، وتشبع المنديل بالدم الأحمر سريعًا، ربما كان الجرح أعمق مما تصورت، لف جوني منديلًا آخر وضغط به على يدي، كنت أشعر بنبض قبضته على أصابعي، ظل ضاغطًا على يدي لفترة حتى توقف الدم، فصاح قائلًا:

"ألا تعرف حتى كيف تعتني بنفسك؟".

"كان مؤلمًا، لكنه كان محتملًا".

"هل تسمي النزيف بهذا الوضع محتملًا؟ أأنت حقًّا روبوت؟ أنت تؤمن بهذا فعلًا، لذلك وقفت هناك ولم تحرك ساكنًا أمام جدتك ووالدتك، لم تفكر أنهما تتألمان وأن عليك إيقاف ذلك الوغد، لم تغضب حتى، لأنك لا تشعر بشيء".

"نعم ، يقول الأطباء إنني ولدت هكذا".

مختل، كان الأطفال يطلقون عليّ هذا الاسم لمضايقتي في المدرسة الابتدائية، كادت أمي وجدتي أن تُجنّا من هذه الكلمة، لكني اعتقدت أنها كانت صحيحة إلى حد ما، ربما كنت حقًّا مختلًّا، لن

أشعر بالذنب أو التوتر حتى لو جرحت أو قتلت شخصًا ما، وقد ولدت هكذا.

قال جوني:

"هكذا ولدت؟ هذا أقبح عذر في العالم".

44

بعد فترة وجيزة، زارني جوني حاملًا صندوقًا بلاستيكيًّا شفافًا، وكان بداخله فراشة قد اصطادها من مكان ما، وسمعت صوت تخبطها بجوانب الصندوق كما لو كان صغيرًا جدًّا ليساع رفرفة جناحيها.

"ما هذا؟".

"تدريب على التعاطف".

لم تكن هناك ابتسامة على وجهه، ولم تكن تلك مزحة، مد يده داخل الصندوق بعناية وأمسك الفراشة، فعلقت أجنحتها الرقيقة مثل البتلات بين أصابعه، وكافحت بلا حول ولا قوة، سألني جوني:

"بما يشعرك هذا؟".

"أعتقد أنها تريد أن تتحرر من قبضتك".

أخرج جوني الفراشة وأمسك بكل جناح بيد واحدة وبدأ

يشدهما في اتجاه معاكس شيئًا فشيئًا، انحنت قرون استشعار الفراشة وتلوى جسدها بشدة وكأنها تعاني.

"إذا كنت تفعل هذا لتجعلني أشعر بشيء ما، فلتتوقف".

"لماذا؟".

"لأن الفراشة أيضًا تتألم".

"وكيف تعرف هذا؟ إنه لا يؤلمك شخصيًّا".

"لأن إذا شدك أحد من ذراعك سيؤلمك بالطبع، أعرف هذا من التجربة".

لم يستسلم جوني، وشد أجنحة الفراشة أكثر، كان جوني يمسك بجناحيها، لكنه يشيح بنظره بعيدًا.

"تبدو متألمة فقط؟ لا ينبغي أن يكون هذا كل شيء".

"ماذا إذًا؟".

"لنرَ، يجب أن تشعر أنك أيضًا تتألم".

"ولماذا أتألم أنا لست الفراشة".

"حسنًا ، لنستمر حتى تشعر بشيء".

شد جوني الجناحين أكثر، وظل ينظر بعيدًا.

"قلت لك توقف، لا يجب أن تعذب الكائنات الحية".

"لا تتحدث مثل كتاب مدرسي، سأتركها عندما تشعر بشيء حقًا".

في تلك اللحظة، تمزق أحد جناحي الفراشة، أطلق جوني شهقة قصيرة وحادة، وأخذت الفراشة التي فقدت طرفًا للتو تدور في مكانها مرفرفة بجناحها المتبقي دون جدوى، سأل جوني غاضبًا:

"ألا تشعر بالأسف لذلك؟".

"لا يبدو المشهد مريحًا".

"لم أسأل عن مدى أريحية المشهد، سألت إن كنت تشعر بالأسف تجاهها".

"توقف".

"لا".

أخرج جوني شيئًا ما من جيبه على عجل، كانت إبرة خياطة، أمسكها بالقرب من الفراشة التي كانت لا تزال تدور على الأرض.

"ماذا تفعل؟".

"أمعن النظر".

"توقف عن ذلك".

"انظر بعناية وإلا قلبت المكان رأسًا على عقب، أتسمعني؟".

لم أرغب في مزيد من الفوضى في مكتبتي، وكنت أعرف أن جوني قادر على تنفيذ تهديداته، حدق جوني في الفراشة كرئيس كهنة يتحضر لبدء طقوس مقدسة، وفي لحظة، اخترقت الإبرة جسد الفراشة، فكافحت الأخيرة في صمت، وأخذت ترفرف بجناحها قدر المستطاع.

حدق جوني في وجهي حانقًا، وكز على أسنانه ثم مزق جناح الفراشة المتبقي، لم يكن أنا من تغير تعبيره بل جوني، ارتعش حاجبه بشكل ملحوظ وعض بشدة على شفته التي تقوست استهزاء قبل قليل.

"ما رأيك الآن؟ ألم تشعر بأي شيء؟ هل ما زلت غير مرتاح؟ هل هذا كل ما تشعر به؟".

بدا صوت جوني متهدجًا.

"أعتقد أن الأمر مؤلم للغاية، لكنك أنت من يبدو عليك عدم الارتياح".

"بالطبع، أنا لا أحب مثل تلك الأشياء، أفضل أن أتخلص منها مباشرة ودون فوضى، أبغض تعذيبها بهذا الشكل".

"إذًا لماذا فعلت؟ تعلم جيدًا أني لا أستطيع أن أتفاعل كما تريد".

"اخرس أيها الأحمق".

وقبل أن أدرك انقلب وجه جوني تمامًا، وكأنني أراه يوم

أوسعني ضربًا بالمحرقة، حاول جوني أن يتمادى مع الفراشة لكنه لم يستطع، كانت الفراشة مطعونة بإبرة وتدور دون أجنحة، ولم تعد فراشة أصلًا، أصبحت مجرد كائن يعبر عن الألم بكل ما تبقى من جسده، تبذل قصارى جهدها متخبطة من اليمين لليسار وللأمام والخلف، هل كانت تتوسل لنا أن نتوقف؟ أم أنها تحارب من أجل البقاء على قيد الحياة؟ لا بد أن هذه غريزة خالصة، وليست عاطفة، بل غريزة تثيرها الحواس.

"اللعنة، أنا أستسلم".

ألقى جوني بالفراشة على الأرض ودعسها بكل ما أوتي من قوة.

45

تركت الفراشة بقعة صغيرة في المكان الذي كانت فيه، تمنيت أن تكون بمكان أفضل الآن، وتمنيت لو كان بإمكاني مساعدتها في تجنب كل هذا الإزعاج.

أعتقد أن ما حدث في ذلك اليوم مع الفراشة كان نوعًا ما أشبه بمسابقة التحديق، لعبة بسيطة، من يغلق عينيه يخسر أولًا، دائمًا أكون الفائز في هذا النوع من المنافسات، يحاول الناس ألا يغلقوا أعينهم، بينما أنا لا أعرف كيف أغلقهم في المقام الأول.

مرت أيام على زيارة جوني الأخيرة لي، لماذا كان غاضبًا مني

وهو من فعل كل هذا بالفراشة؟ لأنني لم أتفاعل؟ لأنني لم أوقفه؟ أم أنه غاضب من نفسه لقيامه بما فعله؟ لم يكن هناك سوى شخص واحد يمكنني أن أسأله هذه الأسئلة.

***

طالما حاول دكتور شيم بذل قصارى جهده للإجابة على أسئلتي، كما كان الوحيد الذي استمع إلى تفاصيل علاقتي الخاصة بجوني دون تحيز.

"هل سأعيش هكذا طوال حياتي؟ لا أشعر بشيء؟".

سألته وأنا ألتهم صحنًا من الأودون، كان دكتور شيم يدعوني لتناول الطعام من حين لآخر، وكان يحب المعكرونة، في الواقع كان يأكل إما خبزًا أو معكرونة، مضغ ما تبقى في فمه من الفجل المخلل ومسح شفتيه.

"هذا سؤال صعب، لكن دعني أخبرك شيئًا، كونك سألت هذا السؤال في حد ذاته تطور كبير، لذا دعنا نحاول".

"أي محاولة؟ قالوا إن المشكلة متأصلة في عقلي منذ الولادة، وأطعمتني أمي اللوز كل يوم، بلا أي فائدة".

"حسنًا، أعتقد أن التحفيز الخارجي أكثر فاعلية من اللوز، فالعقل البشري في الحقيقة أغبى مما تتخيل".

قال دكتور شيم إنه بالرغم من صغر حجم اللوزة الدماغية عندي، إلا أني لو واصلت افتعال مشاعر وهمية، فقد يبدأ العقل بالتعرف عليها كونها مشاعر حقيقية، وهذا قد يؤثر على حجم اللوزة الدماغية وكفاءتها، وقد يجعل فهم مشاعر الآخرين أسهل قليلًا.

"هل سيتغير عقلي الذي ظل على حاله طوال الـ 16 عامًا الماضية الآن؟".

"سأعطيك مثالًا، إذا لم تكن جيدًا في التزلج، حتى لو تدربت 100 يوم لن يجعلك هذا متزلجًا بارعًا، كما يستحيل على شخص أصم أن يغني نغمات الأوبرا بإتقان وينال إعجاب الجمهور، لكن مع التدريب، يمكن أن تخطو بضع خطوات على الجليد، وتغني جزءًا من أغنية، وهذه هي ثمار الممارسة، المعجزات والقيود معًا".

أومأت ببطء، كان كلامه منطقيًا، لكني لم أقتنع تمامًا، هل يمكن أن يحدث هذا معي؟ سأل دكتور شيم:

"منذ متى بدأت تقلق بشأن هذا؟".

"منذ بعض الوقت".

"هل حدث هذا بسبب معين؟".

"حسنًا، أعتقد أن الأمر كما لو كنت الوحيد الذي لم يشاهد فيلمًا شاهده الجميع، بالطبع لن يضر هذا، لكن إذا شاهدته ربما

سيكون لدي المزيد لمناقشته مع الآخرين".

"هذا تطور مذهل، ما قلته للتو يعكس رغبتك في التواصل مع الآخرين".

"يبدو أنها المراهقة".

ضحك الدكتور شيم.

"بينما تمر بهذه المرحلة، درّب مشاعرك على كل ممتع وجميل، أنت مثل ورقة بيضاء، لذا من الأفضل أن تملأها بالأشياء الجيدة بدلًا من الأشياء السيئة".

"سأحاول، لا أعرف ماذا علي أن أفعل بالضبط، لكن أي شيء سيكون أفضل من البقاء ساكنًا".

"فهم مشاعر جديدة لم تعرفها من قبل لن يكون دائمًا ممتعًا، فالعواطف معقدة، وسترى العالم بمنظور جديد ومختلف عما اعتدت عليه، حيث تشعر أن أصغر الأشياء يمكن أن تكون أسلحة حادة، وأقل الكلمات والجمل يمكن أن تؤلمك مثل الأشواك، انظر إلى الصخور الموجودة على الطريق، هي لا تشعر بأي شيء ولا تتأذى، ولا تعرف حتى أن الناس تركلها، لكن تخيل لو كانت تدرك وتشعر بما تتعرض له من ركل ودعس ودحرجة وتهالك كل يوم، كيف كانت ستتأقلم؟ قد لا تفهم هذا المثل ولا يبدو لك منطقيًا لكن ما أود قوله..".

"فهمت، اعتادت أمي أن تخبرني بقصص مماثلة، على الرغم من أنها كانت تريد فقط أن تؤازرني، إلا أنها كانت ذكية جدًّا".

ابتسم دكتور شيم:

"معظم الأمهات أذكياء".

سألت بعد لحظة صمت:

"هل لي أن أسألك سؤالًا؟".

"بالطبع، عن ماذا؟".

"عن العلاقات الإنسانية على ما أظن".

انفجر الدكتور شيم ضاحكًا، وسرعان ما سحب كرسيًّا وجلس ووضع ذراعيه على الطاولة، أولًا، أخبرته عن حادثة الفراشة، وأنا أسرد القصة، شد الدكتور شيم قبضتيه، ولكن بمجرد أن انتهيت من الحكي، راقت تعابير وجهه وابتسم.

"إذًا ماذا تريد أن تعرف بالضبط؟ لماذا فعل جوني ذلك أمامك؟ أو بم شعر جوني حينها؟".

"حسنًا، دعنا نقول كليهما".

أومأ الدكتور برأسه.

"يبدو أن جوني يريد أن يكون صديقك".

كررت دون وعي:

"صديق.. وهل عندما تريد أن تبدأ صداقة مع أحد، تعذب فراشة حتى الموت أمامه؟".

شبك دكتور شيم يديه معًا وقال:

"بالطبع لا، على أي حال يبدو أن جوني قد جُرحت كبرياؤه كثيرًا بعدما قتل الفراشة أمامك".

"لماذا وهو من قتلها؟".

تنهد الطبيب عميقًا، فرددت سريعًا:

"أعلم أنه ليس من السهل أن تُفهمني ذلك".

"لا، كنت فقط أفكر في طريقة لجعل الحديث أبسط، الآن دعني أكمل، جوني مهتم بك بشدة، ويريد التعرف إليك، ويريد أن يشعر بما تشعر به، لكن بعد سماع قصتك، يبدو أن جوني كان من يبادر دائمًا بالود، لماذا لا تبدأ أنت بالتقرب منه من حين لآخر؟".

"كيف؟".

"يوجد بهذا العالم مئات الإجابات لهذا السؤال، لذا من الصعب علي أن أعطيك إجابة محددة، خاصة في مثل عمرك يصبح العالم أكثر غموضًا، ربما حان الوقت لتجد الإجابات بنفسك، ولكن إذا كنت تريد نصيحتي، علينا أن نجيب أولًا عن هذا السؤال، ماذا فعل

جوني في أغلب الأحيان ليتقرب منك؟".

"ضربني".

هز الدكتور شيم كتفيه.

"نسيت هذا، دعنا لا نفكر بهذه الحادثة، ماذا فعل غير ذلك؟".

"هممم..".

فكرت لدقيقة ثم أجبت:

"زارني".

نقر دكتور شيم على الطاولة وأومأ برأسه.

"يبدو أنك وجدت طريقة بالفعل!".

46

قشرت لي مدبرة منزل جوني تفاحة، كانت سيدة ممتلئة الجسد، ذات وجه ناعم وعين وشفاه باسمتين، فبدت مبتسمة حتى لو لم تكن تفعل، قشرت التفاح بحركة حلزونية دون أن تقطع القشرة نهائيًّا، جلستُ على طاولة الطعام في منزل غريب أحدق بالتفاحة التي أمامي، وعندما بدأت التفاحة تتحول تدريجيًّا للون البني، دخل جوني، كان متفاجئًا لرؤيتي، تدخلت السيدة بحديث قصير جعل الأمور أقل حرجًا.

"ها قد أتيت عزيزي جوني، صديقك جاء لرؤيتك وانتظرك لنصف ساعة، والدك أبلغني أنه سيتأخر اليوم، هل أعد لك الطعام".

"لا، أنا بخير، أشكرك".

كان تعبير جوني وهو يتحدث مع السيدة لم أرَه من قبل، كان صوته هادئًا ومهذبًا، ومع ذلك بمجرد أن اختفت، تحدث بنبرته الأصلية مثل طفل عاد إلى عالمه.

"ماذا أتى بك إلى هنا؟".

"أتيت فقط لرؤيتك".

لوى جوني شفتيه، سرعان ما قدمت لنا السيدة صحنين من المعكرونة الساخنة، ويبدو أن جوني كان يتضور جوعًا فما إن أتى الطعام بدأ يلتهمه في نهم بصوت عالٍ.

"تأتي الخالة للعمل مرتين في الأسبوع وهذا رائع حقًّا، وجودها يبعث على الراحة، على الأقل أكثر من هذا الشخص الذي يسمي نفسه أبي".

تمتم جوني بهدوء، يبدو أنه ما زال على خلاف مع والده، كان منزلهم بعيدًا جدًّا عن المدرسة، كانت شقة نظيفة وفاخرة بطابق علوي وتطل على نهر الهان، حيث يمكن رؤية معالم سيول، ومع ذلك، قال جوني إنه لا يشعر وكأنه يعيش في هذا المستوى من

الرفاهية، كان قد مر وقت طويل منذ آخر مرة تحدث فيها جوني ووالده، استنفد البروفيسور يون كل طاقته في البداية محاولاً التواصل مع ابنه، وسرعان ما استسلم، وكان غالبًا ما يغادر المنزل بحجة المحاضرات أو المؤتمرات، وهكذا لم تضِق الفجوة بين الاثنين.

قال جوني:

"هذا الرجل.. لم يسألني قط كيف كانت حياتي السابقة أو ما مررت به، مع أي فئة من الأطفال كنت أتسكع، أحلامي التي أتوق إليها، أو ما جعلني أشعر باليأس، أتعلم ما أول شيء فعله عندما رآني؟ نقلني لمدرسة في حي جانجنام[15]، أعتقد أنني سأدرس بجد هناك وألتحق بجامعة مرموقة، لكن في يومي الأول أدركت أنني لا أنتمي لهذا المكان، ورأيت هذا في أعين الجميع، لذا أعلنت الحرب، بالطبع لم تتحمل مدرسة كهذه سوء التصرف، وطردت منها في غضون أيام".

تأفف جوني للحظة ثم أكمل:

"ثم تمكن بطريقة ما من نقلي إلى مدرستنا، كان ذلك مجرد حفظ لماء وجهه، فهي على الأقل مدرسة آدمية ومحترمة، لكن

15- حي جانجنام: حي يقع جنوب نهر الهان بالعاصمة سيول. ويعتبر حيًا مميزًا يقطن به الأغنياء حيث يصنف من أكثر المناطق ارتفاعًا في أسعار السكن في العالم. كما أنه منطقة مفضلة لدى الآباء والأمهات نظرًا لما به من مدارس عالية المستوى ومراكز تعليم متخصصة. (المترجمة)

في الأساس، كل ما يفعله هو صب خرسانة على حياتي ليؤسس مبنى جديدًا من تصميمه الخاص، لكنني لست من هذا النوع من الأشخاص..".

حدق جوني في الأرض لوهلة واستطرد:

"أنا لست ابنه، أنا مجرد قطعة خردة لا تنتمي لعالمه، لهذا لم يسمح لي برؤية وجهها قبل أن تموت..".

***

"أم" أينما قيلت هذه الكلمة، صمت جوني صمتًا مفاجئًا، سواء وردت في كتاب أو فيلم أو على لسان أحد المارة، يتوقف جوني عن الكلام كما لو أن أحدًا ضغط على زر لكتم صوته.

كان جوني يتذكر شيئًا واحدًا فقط عن أمه، يديها الدافئة الناعمة، فرغم أنه لا يتذكر ملامح وجهها، إلا أنه لا يمكن أن ينسى ملمس يدها الناعمة الرطبة، وتذكر كيف كان يمسك بهاتين اليدين ليلعب بالظل تحت أشعة الشمس.

كلما كانت الحياة تقسو على جوني، كان يخبر نفسه أن الحياة مثل يد أم تمسك بيده للحظة، ثم تفلتها فجأة وتختفي، وبغض النظر عن محاولاته للتمسك بها، إلا أنها تتخلى عنه في النهاية.

"من تعتقد الأكثر تعاسة، أنا أم أنت؟ أنت من كان لديك أم

وفقدها، أم أنا من ظهرت أمي -التي لا أتذكرها- فجأة من العدم فقط لتموت بعدها مباشرة؟".

لم أكن أعرف الإجابة أيضًا، أبقى جوني رأسه منخفضًا لفترة ثم قال:

"هل تعرف لماذا كنت أبحث عنك؟".

"لا".

"لسببين، أولًا، أنت على الأقل لم تحكم علي مثل الآخرين، بفضل عقلك المميز، الذي بسببه أيضًا ذهبت حياة فراشة سدى.. والثاني..".

ابتسم ابتسامة عريضة للحظة وأكمل.

"في الحقيقة كان هناك سؤال أردت أن أسأله، لكن اللعنة، لم أستطع التفوه به..".

ساد الصمت بيننا، ودقت عقارب الساعة بينما انتظرت كلمات جوني التالية، همس جوني ببطء

"كيف بدت؟".

استغرقت بعض الوقت لأفهم سؤاله، أكمل جوني:

"لقد قابلتها، مرة واحدة، لكنك فعلت".

عدت بذاكرتي لغرفة مليئة بالورود، وحضر بذهني وجهها الشاحب، على الرغم من أني لم أدرك ذلك حينها، لكن وجهها كان انعكاسًا تامًّا لوجه جوني:

"كانت تشبهك".

"لقد رأيت صورها لكني لم أستطع رؤية التشابه".

زفر جوني ثم سأل مرة أخرى:

"كيف كانت تشبهني؟".

هذه المرة نظر جوني إلى عيني مباشرة، تداخل وجه السيدة يون في ذاكرتي مع وجه جوني الذي أنظر إليه:

"العيون، ودوران الوجه، والابتسامة.. حيث تضيق زوايا عينيك وتظهر غمازاتك".

"تبًّا..".

أشاح جوني بوجهه وقال:

"لكنها ظنت أنك أنا عندما رأتك".

"كان أي شخص مكانها ليظن ذلك".

"لا بد أنها حاولت العثور على ملامحها في وجهك".

"كل ما قالته لي كانت تقصدك أنت به".

"كلماتها الأخيرة.. ماذا كانت كلماتها الأخيرة؟".

"عانقتني بقوة".

هز جوني رأسه، ثم استطاع أخيرًا الهمس مجددًا:

"هل كانت دافئة، يداها؟".

"نعم، دافئة جدًّا".

بدأت أكتاف جوني التي كانت قد اشرأبت تنخفض ببطء، وتجعد وجهه مثل بالون فرغ لتوه من الهواء، وانحنى رأسه لأسفل ببطء، والتوت ركبتاه للداخل، وأخذ جسمه يرتجف لأعلى وأسفل، لم يصدر صوتًا ولكني علمت أنه يبكي، نظرت إليه من أعلى دون أن أنبس ببنت شفة، وشعرت وكأنني أزداد طولًا بلا داع لتتسع الفجوة بيننا.

47

ظللنا نلتقي طوال العطلة الصيفية، وفي ليلة من ليالي الصيف الحارة، زادت رطوبة بشرتي حتى أصبحت لزجة، استلقى جوني على الأرض أمام المكتبة وأخذ يحكي لي قصصًا، لكني أتساءل إن كانت هناك أي جدوى من تدوين هذه القصص هنا، لقد عاش جوني حياته من قبل بلا تكلف، ستة عشر عامًا من حياة محطمة ووحيدة وأحيانًا فوضوية، حاولت أن أقنعه أنه القدر يلعب لعبته

العشوائية، لكنني لم أفعل، فلم تكن سوى كلمات قرأتها في كتاب.

كان جوني أبسط شخص قابلته في حياتي، وأكثرهم شفافية، حتى أبله مثلي يمكنه أن يعرف بسهولة ما بداخله، ودائمًا ما كان يقول إن علينا أن نكون أقسى من هذا العالم القاسي، وهذا ما خلص إليه جوني رحلة حياته.

لا يمكن أن نكون متشابهين، كنت مملًّا جدًّا، وكان جوني يتظاهر بالقوة ولا يعترف بضعفه.

قال الناس إنه لا يمكنهم فهم شخصية جوني، لكنني لا أتفق معهم، كل ما في الأمر أن أحدًا لم يحاول النظر إليه حقًّا.

***

أتذكر أن أمي كانت تشد على يدي بقوة عندما نسير معًا بمكان ما، لم تترك يدي أبدًا، في بعض الأحيان عندما كنت أحاول التملص منها كانت تحكم قبضتها على كفي أكثر، وتنظر إلي وتطلب مني أن أمسكها بقوة، لأننا عائلة وعلينا أن نسير معًا يدًا بيد، وكانت جدتي تمسك بيدي الأخرى، لم يتخلَّ عني أحد قط، وبالرغم من دماغي المعتل، لم تتمزق روحي بفضل دفء تلك اليدين المسكتين بي من كل جانب.

48

كنت أتذكر أحيانًا الأغاني التي كانت تغنيها لي أمي، كان صوت أمي حادًّا، لكن عندما كانت تغني لي كان ينخفض ويصبح عميقًا، ذكّرني صوتها بصوت الحوت الذي رأيته في أحد الأفلام الوثائقية، أو صوت الريح وتلاطم أمواج البحر من بعيد، كان صوتها الذي يملأ أذني يخفت بمرور الوقت، ربما كنت على وشك أن أنساه قريبًا، كل ما أعرفه كان يتلاشى.

الجزء الثالث

49

كانت دورا النقيض التام لجوني، فبينما كان جوني يعلمني الألم والشعور بالذنب والوجع، كانت دورا تعرفني على الزهور والروائح والنسائم والأحلام، كانت مثل أنشودة لم أسمعها من قبل، كانت تعرف كيف تغني الأغاني التي يعرفها الجميع بطريقة مختلفة تمامًا.

50

بدأ فصل دراسي جديد، وبدا الحرم الجامعي -كما هو- شكلًا مع بعض الاختلاف، أصبحت أوراق الشجر أغمق لونًا، أما الرائحة فاختلفت تمامًا، كلما استقر الطقس زادت الرائحة التي تفوح من الطلبة، كان الصيف يلفظ أنفاسه الأخيرة، واختفت الفراشات شيئًا فشيئًا وتناثر الزيز النافق على الأرض.

وبحلول الخريف، حدث لي أيضًا تغيير غريب، من التغييرات التي يصعب شرحها، شيء بالكاد يمكن أن نسميه تغييرًا، بدت الأشياء التي أعرفها مختلفة والكلمات التي طالما قلتها بسهولة تحوم على طرف لساني دون أن تخرج.

كنت أشاهد عرضًا لفرقة كي-بوب مكونة من خمس فتيات على التلفاز ظهر يوم الأحد، كانت الفرقة تلقي خطابًا لتصدرها المبيعات لأول مرة منذ ترسيمهن قبل ثلاث سنوات، كانت الفتيات اللائي بَدَون في مثل عمري، يرتدين تنانير قصيرة وكنزات بالكاد تغطي صدورهن وقفزن بعضهن حول بعض في مرح، شكرت قائدة الفرقة مديرهم الفني ورئيس شركة التسجيلات وموظفيها ومصممي الأزياء ورابطة المحبين، قالت كل هذه الأسماء بسرعة البرق كما لو كانت قد حفظتها عن ظهر قلب، ثم بكت وأنهت خطابها بعبارات مبتذلة.

"شكرًا لحبكم، نحن أيضًا نحبكم كثيرًا، يا لها من ليلة رائعة!".

لقد رأيت مثل هذا المشهد مرات لا تحصى بفضل أمي التي كانت تستمع بمشاهدة برامج الغناء، لكن في ذلك اليوم تحديدًا تساءلت هل من الطبيعي أن نستخدم كلمة "حب" بهذا الشكل العرضي؟

تذكرت أعمال جوته وشكسبير حيث تلجأ شخصياتهما غالبًا إلى الموت في بحثهما اليائس عن الحب، وفي هؤلاء الذين ظهروا في الأخبار بعد هوسهم وإيذائهم لأحبائهم، فقط لأنهم تخيلوا أن حبهم قد قل، وآخرين قد غفروا ما لا يغفر بعد سماع كلمة واحدة وهي أحبك.

***

ما فهمته أن الحب مفهوم متطرف، كانت كلمة تحبس في حروفها شيئًا لا يمكن تعريفه، لكن غالبًا ما كانت تستخدم بمنتهى السهولة، وتحدث الناس عن الحب بشكل عرضي، فقط للتعبير عن الامتنان أو الشكر.

عندما أخبرت جوني بذلك، أطلق زفيرًا وكأنني لم أقل شيئًا:

"هل تسألني حقًّا ما هو الحب؟".

"أنا لا أطلب منك تحديد المفهوم بدقة، أريد فقط أن أعرف رأيك".

"هل تعتقد أنني أعرف؟ أنا أيضًا لا أعرف، ربما تكون هذه

نقطة تشابهنا".

قهقه جوني ثم حدق بي، كانت عادته أن يغير تعابيره بسرعة، قال:

"كانت لديك أم وجدة، لا بد أنك مُنحت الكثير الحب من تلك النساء، فلماذا تسألني؟".

صبغت المرارة كلماته هذه المرة، عبث جوني بشعره عدة مرات من مؤخرة رقبته لأعلى رأسه وأكمل:

"أنا لا أهتم بالحب، أود تجربته بالتأكيد، ذلك الذي يجمع بين شاب وفتاة".

أمسك جوني بقلم وفك عنه الغطاء وظل يدخل القلم ويخرجه من الغطاء مرارًا وتكرارًا، قلت:

"تفعل ذلك كل ليلة يا رجل".

"عجبًا! هذا الأحمق يعرف كيف يمزح، تقدم رائع! وهل تسمي هذا حبًّا بين شاب وفتاة؟ هذا حب لنفسي".

صفعني على مؤخرة رأسي صفعة غير مؤلمة، ثم اقترب حتى كاد وجهه يلاصق وجهي:

"هل تعرف ما هو الحب بين الشاب والفتاة؟".

"أعرف الغرض".

سأل جوني وعيناه تبتسمان:

"حقًّا؟ وما هو؟".

"التكاثر، جيناتنا الأنانية التي تدفعنا لغريزة..".

قبل أن أكمل الجملة صفعني جوني مرة أخرى على مؤخرة رأسي، هذه المرة آلمتني قليلًا.

"أحمق غبي، أتعلم شيئًا؟ أنت غبي لأنك تعرف الكثير، الآن اسمع لحكمة أخ كبير".

"عيد ميلادي قبل عيد ميلادك لذا فأنا الأكبر".

"ألا تعرف سوى النكات السخيفة؟".

"لم أكن أمزح، إنها الحقيقة..".

"اخرس".

ضحك جوني وهم بضربي مرة أخرى ولكني تفاديتها:

"أتهرب؟ حركة جيدة".

"هلا نعود إلى ما كنت تقول".

تنحنح جوني وأكمل:

"أعتقد أن الحب عديم الفائدة، فهو تظاهر بأن كل شيء عظيم وأبدي، أنا أفضل أن أكون قاسيًا، وليس رقيقًا".

"قاسيًا؟".

"بلى، قوي، أفضّل أن أكون من يؤلم ويؤذي بدلًا من أن أتألم أو أتعرض للأذى، مثل السلك الحديدي".

ذكر جوني السلك الحديدي عدة مرات، لكني لم أكن معتادًا على الاسم، ارتعش جسدي قليلًا لذكره، وشعرت أنني على وشك سماع قصة لا أريد سماعها.

ومضت عين جوني وقال:

"إنه قوي حقًّا، أريد أن أكون مثله".

على أي حال، بدا من الصعب الحصول على إجابة شافية من جوني بهذا الشأن، وعندما سألت دكتور شيم، تفاجأ وبدا في حيرة من أمره أيضًا، ذات يوم سألت أمي جدتي التي كانت تكتب الرمز الصيني لكلمة "حب" والذي يبدو هكذا 愛:

"هل تعرفين ماذا يعني هذا الرمز يا أمي؟".

رفعت جدتي عينها ونظرت إلى أمي وقالت:

"بالطبع!".

ثم قالت بصوت منخفض وعميق:

"الحب".

سألت أمي حانقة:

"وماذا يعني الحب؟".

أجابت جدتي:

"اكتشاف الجمال".

نقشت جدتي الجزء العلوي من الرمز، ثم الأوسط والذي يعني "قلب" وقالت:

"هذه النقاط الثلاث هي نحن، هذه أنا، وهذه أنت، وهذا هو".

وهكذا اكتمل الرمز بالنقاط الثلاث التي تمثل عائلتنا، حتى ذلك الحين لم أكن أعرف كيف أكتشف الجمال، لكن في الآونة الأخيرة، بدا يتبادر إلى ذهني وجه واحد عندما أفكر بالجمال.

51

لي دورا، عندما أستحضر ما أعرفه عنها يخطر ببالي ركضها، تركض مثل غزال أو حمار وحشي، في الواقع هذا ليس حتى تشبيهًا صحيحًا، هي فقط دورا، دورا الراكضة، تضع نظاراتها الفضية على الأرض، وتشق ذراعاها وساقاها النحيفتان الريح، تنعكس أشعة الشمس على نظارتها وتخلف وراءها سحابة من الغبار، وتعيد أصابعها البيضاء نظارتها على وجهها بمجرد أن

تنهي السباق، هذا كل ما أعرفه عن لي دورا.

52

في حفل استقبال الطلبة الجدد، وقفت بعيدًا حيث كان الحفل مملًا، ثم تسللت من الباب وخرجت إلى الردهة، سمعت صوتًا في مكان ما، أدرت رأسي لأرى فتاة تقف في نهاية الرواق، هذبت شعرها بطول كتفها وأرجعته وراء أذنها بينما تنقر على الأرض بقدمها، ولا بد أنها اعتقدت أن لا أحد حولها حيث بدأت في القيام بنوع من الإحماء، مددت ذراعيها وساقيها وقفزت في مكانها ثلاث مرات، ثم ركضت بلا هوادة عبر الردهة، وتوقفت أخيرًا أمامي وهي تلهث، التقت أعيننا ربما لخمس ثوان، كانت هذه هي دورا.

كان لنظارتها إطار سميك فضي غير لامع مع عدسات مستديرة، كانت العدسات رقيقة ومليئة بالخدوش التي تعكس ضوء الشمس، لذا لم أستطع رؤية تعبيرها جيدًا، كانت دورا مختلفة بعض الشيء، لم تتحمس للأمور الصغيرة مثل الطلبة الآخرين، وبدت أحيانًا كامرأة عجوز جدًّا، لم يقتصر الأمر على مجرد كونها أكثر ذكاءً أو نضجًا، كانت مختلفة حقًّا.

تغيبت دورا عن الكثير من الدروس حتى بداية أبريل الماضي، وحتى المرات القليلة التي أتت فيها إلى المدرسة، غالبًا ما كانت تغادر مبكرًا دون أن تحضر دروسًا إضافية أو مسائية، لذلك لم

يكن لدى دورا فرصة لرؤية ما حدث بيني وبين جوني في بداية الفصل الدراسي، في الواقع، يبدو أنها لا تهتم بما يدور حولها، كانت دائمًا ما تجلس في الزاوية وتضع سماعات أذنها فقط، سمعت أنها كانت تستعد للانتقال إلى مدرسة ثانوية أخرى بها فريق لسباقات العدو والتتابع، لكنها في النهاية بقيت بمدرستنا، ونادرًا ما كنت أراها تتحدث، حتى أثناء الدرس، كانت تحدق فقط إلى ملعب المدرسة من نافذة الفصل، مثل نمر محبوس في قفص.

لم أرَ دورا دون نظارتها سوى مرة واحدة، كان ذلك في اليوم الرياضي الربيعي، وقد شاركت دورا في سباق 200 متر كممثلة للفصل، وبسبب نحافتها وضآلتها لم تعطِ انطباعًا رياضيًّا جيدًا، لكن على كل، وقفت دورا مستعدة أمام خط البداية، والذي كان بالصدفة أمامي مباشرة.مكتبة .. سُر مَن قرأ

ثابت! ألقت دورا نظارتها ولمست الأرض، استعد! رأيت زوايا عينيها مسحوبة قليلًا، ورموشها كثيفة ويشع من حدقتها ضي بني فاتح، انطلق! ركضت دورا، ضربت ساقاها النحيفتان والقويتان الأرض بقوة وطارت بعيدًا مخلفة وراءها سحابة غبار، كانت أسرع من كل الآخرين، مثل الريح، ريح قوية لكنها خفيفة، أنهت المضمار في سرعة البرق، واجتازت خط النهاية، وقبل أن تتوقف مباشرة التقطت نظارتها وأعادتها فوق أنفها لتختفي عيناها الغامضتان خلفها.

كانت دورا معظم الوقت محاطة بالأصدقاء وتأكل في مجموعة،

لم تكن المجموعة ثابتة دائمًا، ولم تكن وحيدة، لكنها لم تكن مرتبطة بأصدقاء معينين أيضًا، ولا يبدو أنها تهتم كثيرًا بمن تأكل معهم أو ترافقهم عند العودة للمنزل، في بعض الأحيان كانت تتجول وحيدة، ومع ذلك، لم تتعرض للتنمر أو النبذ، بدت وكأنها شخص قادر على أن يبقى وحده.

53

فتحت والدتي عينيها بعد تسعة أشهر في الفراش، قال الأطباء إن هذا لا يدعو للحماس، حيث إنه حرفيًّا مجرد فتح وغلق للجفون وليس إفاقة، ولا يختلف عن كيس البول الذي يمتلئ تلقائيًّا، كانت لا تزال بحاجة إلى تغيير وضعها كل ساعتين والاستعانة بأسترة البول، وعندما كانت تفتح عينيها كانت تحدق بالسقف، وبدا أن حدقتها تتحرك قليلًا.

كانت أمي شخصًا يمكنه رؤية الأبراج الفلكية في أي شيء حتى ورق الحائط المزخرف، انظر، تبدو هذه المغرفة مثل كوكبة الدب الأكبر، وهناك كوكبة ذات الكرسي، لنبحث عن الدب الأصغر أيضًا، قالت جدتي حينها: "إذا كنت مهووسة بالنجوم فلمَ لا تصلين لإله القمر على إناء مياه!"، كدت أسمع صوت جدتي الساخر عندما زرت قبرها بعد فترة طويلة من الغياب، كان مغطى بالأعشاب الضارة، تذكرت ضحك أمي وجدتي، كان بعيدًا مثل أصداء واهية.

لقد مر وقت طويل منذ أن جاء للمكتبة أي زبائن، ظللت أجلس خلف الخزينة يوميًّا بعد اليوم الدراسي، لكني يئست من انتظار مبيعات أو أرباح، ولا يمكن العيش عالة على معونة دكتور شيم إلى الأبد، أدركت ذات يوم أن المكتبة دون أمي وجدتي كانت مثل مقبرة، مقبرة من الكتب، وأعتقد أنني اتخذت قراري حينها، لقد حان الوقت لإغلاق هذا المكان.

أخبرت دكتور شيم أنني أود حزم أمتعتني من المكتبة، وتقليل متعلقاتي المتبقية بها، والانتقال إلى غرفة بسيطة فردية، ظل صامتًا لبعض الوقت، ثم بدلًا من السؤال عن السبب، أومأ برأسه.

***

كان أمين المكتبة بالمدرسة هو معلم مادة الأدب الكوري للصف الثالث، عندما ذهبت إلى غرفة المعلمين رأيته ينحني لنائب المدير الذي كان يستجوبه بشأن حصول فصله على أدنى الدرجات مرة أخرى في الامتحانات التجريبية للالتحاق بالجامعة، وما يجب أن يفعله لتصحيح الوضع، عاد إلى مقعده بوجه أحمر مكفهر، سألته إن كان بإمكاني التبرع ببعض الكتب لمكتبة المدرسة، أومأ بفتور موافقة.

كان الرواق صامتًا صمت الأموات، فقد قربت امتحانات منتصف العام، لذا لم يُثِر الطلبة ضجة أثناء الدروس المسائية، توجهت إلى

المكتبة وأنا أحمل صندوقًا مليئًا بالكتب كنت قد تركته في ركن صالة الألعاب الرياضية بالمدرسة في وقت سابق من صباح ذلك اليوم،

فُتح الباب بسهولة، وبمجرد أن فتح سمعت صرخة حماسية، هيا هيا! اقتربت من رف الكتب ورأيت هيئة جانبية لفتاة تقف بقدم للأمام والأخرى للخلف، وكانت تحرك قدميها ذهابًا وإيابًا وهي تقفز في مكانها، وكانت خطواتها واسعة جدًّا، تساقطت قطرات العرق على أنفها، وهفهف شعرها والتقت أعيننا، كانت دورا.

بادرت بالحديث حيث إنه من الذوق إلقاء التحية أولًا في مثل تلك المواقف:

"مرحبًا".

توقفت دورا، فتحتُ الصندوق وبدأت أجيب عن أسئلة لم تطرحها:

"أنا هنا للتبرع بالكتب".

مكتبة
t.me/soramnqraa

قالت دورا:

"فقط اتركها هنا، بالتأكيد سيقوم أمناء المكتبة بتنظيمها".

"ألستِ الطالبة المسؤولة عن المكتبة".

"لا أنا في فريق العدو والتتابع".

"هل لمدرستنا فريق رسمي للعدو والتتابع؟".

"نعم، على الرغم من عدم وجود مدرس مسؤول ولا أعضاء غيري".

"حسنًا..".

وضعت الصندوق المفتوح ببطء في الزاوية.

"من أين لك بكل هذه الكتب؟".

أخبرتها عن المكتبة، كانت معظم الكتب التي تبرعت بها هي كتب مراجعات ونماذج للامتحانات، وكانت تلك الكتب شائعة وكثيرة، لذا لا تباع بسهولة بعد موسم الامتحانات، ما لم تكن مشهورة جدًّا.

"بالمناسبة، لماذا تتمرنين هنا وليس في الصلة الرياضية؟".

كانت تمشي ويداها معقودة خلف ظهرها وتهز رأسها قليلًا.

"الصالة مكشوفة جدًّا، بينما المكان هنا هادئ، فالطلبة بالكاد يأتون إلى المكتبة، وأحتاج إلى ممارسة تمارين اللياقة البدنية للركض بشكل أفضل".

يبتسم الناس وتلمع عيونهم عندما يتحدثون عما يحبون، كما فعلت دورا للتو:

"لماذا تمارسين العدو؟".

لم أسأل بقصد معين، ومع ذلك انطفأت لمعة عيون دورا:

"هل تعلم أنك سألت للتو أكثر سؤال أكرهه؟ لقد سئمت سماعه من أبي وأمي".

"أنا آسف، لم أقصد مضايقتك، أردت فقط معرفة هدفك من الركض".

تنهدت دورا:

"بالنسبة لي فالأمر أشبه بالسؤال عن هدفك من الحياة، بصراحة نحن فقط نعيش لأننا أحياء، وعندما تحدث لنا أحداث سعيدة نفرح، وعندما لا تسير الأمور كما نريد نحزن، الأمر نفسه ينطبق على الركض، من الرائع أن أفوز بالمركز الأول، وأحزن عندما لا أفعل، أو ألوم نفسي لافتقاري للمهارة المطلوبة، لكن سأستمر بالركض على أي حال، تمامًا مثل هذه الحياة، أحيا وحسب وأركض وحسب!".

بدأت دورا كلامها بهدوء لكن نبرتها ارتفعت في النهاية، أومأت برأسي لتهدئتها.

"وهل اقتنع والداك بهذا الرد".

"لا، سخروا مني فقط، قالوا لي ما الطائل من هذا، فلن يصبح العدو مجديًا عندما أصبح بالغة، إلا عندما أركض لعبور الشارع

قبل أن تتغير إشارة المرور، أليس هذا مضحكًا؟ قالوا إني لست يوسين بولت، فلماذا أرهق نفسي بالعدو!".

تدلت شفتا دورا.

"إذًا ماذا يريدك والداك أن تفعلي؟".

"لا أعلم، قالا قبلًا إنني إذا أردت أن أصبح رياضية فعلي أن أحترف الجولف، على الأقل ستكون لدي فرصة لكسب المال، لكن الآن لا يريدان هذا حتى، ينبهان علي ألا أحرجهما فقط إذا ذهبنا إلى مكان ما، لقد أنجباني بإرادتهما، لكن هل علي أن أحقق رغباتهما فقط؟ هدداني باستمرار أنني سأندم على هذا، لكن حتى لو ندمت، فسيكون هذا اختياري، لكل منا نصيب من اسمه، وقد أسموني دورا لي لذا فسأكون حقًا دوراي[16] مجنونة".

ابتسمت دورا كأنها تحسنت بعد أن باحت بمكنون صدرها، وقبل أن تغادر سألتني عن مكان المكتبة التي أعمل بها، فأخبرتها بالمكان متسائلًا لماذا طلبته، فابتسمت وقالت:

"في حالة تعذر التدريب هنا فسأتدرب هناك".

54

16- دوراي: لفظ دارج بالكورية بمعنى مجنون، مختل، أو غريب الأطوار. (المترجمة)

كانت درجتي في الامتحانات التجريبية دائمًا متوسطة، ودرجتي في الرياضيات دائمًا هي الأفضل، تليها العلوم والدراسات الاجتماعية، لكن كانت المشكلة في مادة اللغة، لماذا هناك كل هذه المعاني والمفرادات والفروق الدقيقة؟ ولماذا يخفي المؤلفون قصدهم من النص هكذا؟ كانت محاولاتي لفهم المعاني بين سطور النص دائمًا خاطئة.

ربما يكون فهم اللغة مثل فهم تعبيرات أو مشاعر الآخرين، ولهذا السبب قيل إن اللوزة الصغيرة عادة ما تسبب انخفاض مستوى الذكاء، ولأنه من الصعب فهم السياق في هذه الحالة، فإن القدرة على التفكير المنطقي تتناقص وكذلك الذكاء، كان من الصعب علي قبول درجاتي في اللغة الكورية، لأنها المادة التي أردت التفوق بها، لكنها في الحقيقة كانت الأسوأ.

كانت عملية ترتيب المكتبة تسير ببطء، كان كل ما علي فعله هو التخلص من الكتب لكنها لم تكن مهمة سهلة، أخذت كتابًا تلو الآخر والتقطت صورة تلو الأخرى، كنت بحاجة إلى التحقق من شروطهم حتى أتمكن من نشرها على موقع الاستبدال، ولم أدرك قبلًا أن هناك هذا الكم من الكتب في المكتبة، كان كل رف يعج بأفكار وقصص ودراسات لا حصر لها، فكرت في المؤلفين الذين لم تسنح لي الفرصة لمقابلتهم، وفجأة خطر لي أنهم أناس بعيدون جدًّا عني، كانت فكرة لم تخطر ببالي من قبل، حيث اعتقدت دائمًا أنهم حولي، وفي متناول يدي ويسهل الوصول لهم مثل الصابون

أو المنشفة، لكن في الواقع، كانوا في عالم مختلف تمامًا عني، ربما في مكان ما لا يمكنك الوصول إليه أبدًا.

"أهلًا".

سمعت صوتًا فوق كتفي، تجمد قلبي في صدري كما لو كان هناك من أمطرني بمياه مثلجة، كانت دورا:

"فكرت بالزيارة لمرة على الأقل، هل يمكنني ذلك؟".

أجبتُ:

"ربما.. أقصد.. بالتأكيد، من النادر أن يطلب الزبائن الإذن للزيارة، ما لم يكن مطعمًا شهيرًا يحتاج إلى حجز مسبق، وكما ترين، الوضع هنا ليس كذلك".

أدركت أنني اعترفت للتو بأن مكتبتي لا تحظى بالشعبية، وانفجرت دورا ضاحكة لسبب ما، كانت ضحكتها كمئات البلورات الجليدية ترتطم بالأرض، أخذت تتجول بين الكتب محافظة على ابتسامتها.

"هل افتتحت المكتبة قريبًا، لا يبدو أن الكتب نظمت بعد".

"بل أنا أشرع بإغلاقها، من الغريب استخدام أشرع للانتهاء من عمل ما!".

"خسارة، فقدت فرصتي أن أكون زبونة دائمة".

لم تتحدث دورا كثيرًا في البداية، بدلًا من ذلك ظلت تفعل أشياء أخرى، مثل نفخ خديها بعد قول بعض الكلمات، أو التنهد بصوت عال، أو نقر الأرض بمقدمة حذائها الرياضي ثلاث مرات، ثم طرحت سؤالًا فجأة وكأن الوقت قد حان.

"هل صحيح أنك لا تشعر بأي شيء؟".

إنه نفس السؤال الذي طرحه جوني من قبل.

"ليس تمامًا، لكن مقارنة بالمعايير التقليدية، فعلى الأرجح أنا كذلك".

"مذهل! اعتقدت أن مثل هؤلاء يظهرون فقط في الأفلام الوثائقية أو البرامج الخيرية لجمع التبرعات.. آسفة، لم أقصد قولها بهذه الطريقة".

"لا عليك".

أخذت دورا نفسًا قصيرًا وأكملت:

"كما تعلم، لقد سألتني لماذا أركض في المرة السابقة، وقد شعرت بالأسف لأنني صببت غضبي عليك، فجئت للاعتذار، في الحقيقة أنت أول شخص تطرح علي هذا السؤال بعد والدي".

"حسنًا".

"إذًا دعني أسألك سؤالًا من باب الفضول، ماذا تريد أن تصبح

في المستقبل؟".

لم أستطع الإجابة لبرهة من الزمن، على ما أتذكر كانت هذه هي المرة الأولى التي أُسأل فيها هذا السؤال، لذلك أجبت بصدق.

"لا أعلم. لم يسألني أحد عن ذلك من قبل".

"وهل يحتاج هذا لسؤال؟ ألم تفكر في الأمر وحدك من قبل؟".

"إنه سؤال صعب بالنسبة لي".

ترددت قليلًا في الرد لكن دورا لم تطلب المزيد من التوضيح، وبدلًا من ذلك وجدت بيننا نقطة تلاقٍ.

"أنا أيضًا، أشعر الآن أن أحلامي تبخرت، والداي يعارضان فكرة العدو والسباقات.. يا له من أمر محزن أن نشترك في هذا".

ظلت تثني ركبتيها وتمددها، لم تستطع البقاء ثابتة، كمن يكبح رغبة جامحة في الركض، وكانت تنورة زيها المدرسي ترفرف بخفة، رفعت عيني وعدت لترتيب الكتب، قالت:

"تعمل بحرص شديد، لا بد أنك تحب تلك الكتب كثيرًا".

"نعم، أنا فقط أودعهم لأننا سنفترق قريبًا".

نفخت دورا خديها مجددًا، ثم قالت:

"أنا لا أحب الكتب، الكلمات مملة، عالقة وثابتة في مكانها،

لكني أفضل الحركة".

تحسست دورا الكتب الموضوعة على طول الرف بأصابعها، ثم سمعنا صوت زخات بالخارج، ويبدو أن المطر بدأ يهطل، أكملت دورا:

"لكن الكتب المستعملة تبدو أفضل، فرائحة الورق أكثر عبقًا وحيوية، مثل أوراق الربيع المتساقطة".

ابتسمت دورا على كلماتها ثم قالت سريعًا:

"سأذهب الآن".

وغادرت قبل أن أتمكن من الرد.

55

كنت في طريق عودتي إلى المنزل بعد المدرسة في ظهيرة طويلة ومشمسة، كان الهواء باردًا والشمس تطل على الأرض من بعيد، أو ربما كنت مخطئًا، ربما كانت الحرارة لا تطاق بسبب الشمس الحارقة، مشيت على طول سور المدرسة الرمادي وكنت على وشك الانعطاف، فجأة هبت رياح قوية من العدم، اهتزت لها فروع الشجر بعنف، وارتجفت أوراقه.

إن لم تخطئ أذني، فلم يكن صوت شجر يتمايل في مهب الريح،

بل كان صوت أمواج، وفي ثانية، تناثرت أوراق الشجر من كل لون على الأرض، كنا لا نزال في نهاية الصيف، والشمس مشرقة في السماء، ولكن لسبب ما لم يكن هناك سوى أوراق شجر صفراء وبرتقالية تتساقط لتسد الأفق.

وسط كل هذا وقفت دورا على مسافة مني، داعبت الريح شعرها وحركته إلى اليسار، كان طويلًا ولامعًا، وخصله كثيفة مثل الخيط السميك، تباطأت دورا لكني لم أفعل، حتى ضاقت المسافة بيننا، كنا قد تبادلنا الحديث مرات من قبل لكني لم أكن بهذا القرب منها أبدًا، تناثر النمش على وجنتيها البيضاء، ضيقت عينيها لتفادي الريح لتكشف عن جفن مزدوج صغير، وعندما نظرت لعينها، اتسعت حدقتها.

غيرت الريح اتجاهها فجأة، فبدأ شعر دورا يطير في الاتجاه المعاكس ببطء، وحملت الريح رائحته إلى أنفي، كانت رائحة لم أشمها من قبل، رائحة مثل أوراق الخريف المتساقطة، وبراعم الربيع، كانت رائحة تبعث في النفس كل المتناقضات دفعة واحدة، واصلت التقدم، وكنا الآن نقف وجهًا لوجه، فصفع شعرها وجنتي، تأوهت "آه" قصيرة من وخزته، فجأة شعرت بثقل في قلبي وكأن صخرة قد هوت في صدري، ثقل لم يكن مريحًا.

قالت دورا:

"آسفة".

"لا عليك".

خرجت الكلمات متهدجة وكأنها علقت بصدري، ودفعتني الريح بقوة، فهممت بالمشي مسرعًا لمقاومتها.

***

لم أستطع النوم في تلك الليلة، ظلت المشاهد تتكرر في رأسي مثل الهلاوس، الأشجار الهائمة والأوراق الملونة، ودورا تقف هناك في مهب الريح.

نهضت ومشيت بين أرفف الكتب دون هدف، سحبت قاموسًا للغة الكورية وبحثت فيه، لكن لم تكن لدي أي فكرة عن الكلمة التي كنت أبحث عنه، كان جسدي ساخنًا، ونبضات قلبي تخفق بشدة تحت أذني، كان بإمكاني الشعور بنبضي في أناملي وأصابع قدمي أيضًا، والتي داهمها تنميل مثل أسراب من حشرات صغيرة تزحف عليها، لم يكن شعورًا محببًا، شعرت بصداع ودوار، ومع ذلك، ظللت حبيس تلك اللحظة التي لامس فيها شعر دورا وجهي، ورائحة ودفء الهواء بيننا، بالكاد غفوت بعد الفجر عندما تحولت السماء الى اللون الأزرق.

56

انخفضت الحمى في الصباح، لكن ظهرت أعراض أخرى غريبة، عندما ذهبت إلى المدرسة رأيت مؤخرة رأس أحدهم تتوهج، كانت دورا، التفتُّ وسرت بعيدًا، لكن قلبي ظل يؤلمني كما لو كانت به شوكة عالقة طوال اليوم.

عند غروب الشمس، زارني جوني بالمكتبة، لسبب ما لم أستطع التحدث معه أو حتى الاستماع إلى ما كان يقوله.

"ماذا بك؟ لا تبدو بخير".

"أشعر بالتعب".

"ماذا يؤلمك؟".

"لا أعرف، كل شيء".

اقترح جوني أن نخرج لتناول الطعام لكنني رفضت، مصمص شفتيه وغادر، مددت جسدي المتيبس في الاتجاهين، ولم أستطع معرفة ما العلة، بمجرد أن خرجت من المكتبة صادفت دكتور شيم، سألني:

"هل تناولت العشاء؟".

هززت رأسي، كان الليل قد حل بالفعل.

هذه المرة ذهبنا لمطعم معكرونة الحنطة السوداء، أضاف دكتور شيم الروبيان المقلي قائلًا إن السعرات الحرارية بالمعكرونة منخفضة جدًّا ولن تكفي مراهقًا مثلي في طور النمو، لكني بالكاد لمست الطعام، شاركت معه كل التغييرات الغريبة التي تحدث في جسدي وهو يتناول المعكرونة ببطء، لم يكن لدي الكثير لأقوله، ومع ذلك استغرقت ضعف الوقت المتوقع لأنني وجدت صعوبة في التعبير، تمكنت أخيرًا من إنهاء حديثي قائلًا:

"تناولت دواء لأنني اعتقدت أنها أعراض نزلة برد".

عدل دكتور شيم وضع نظارته، وثبت عينيه على رجليّ المرتعشتين.

"حسنًا، دعنا نسهب في التفاصيل".

"تفاصيل أكثر من هذا؟ ماذا تقصد؟".

ابتسم دكتور شيم وقال:

"حسنًا، اعتقدت أنه قد يكون هناك شيء لم تقله لأنك لم تعرف كيف تعبر عنه، هل يمكنك أن تخبرني على مهل؟ متى بدأت تلك الأعراض في الظهور، ما كان السبب أو نقطة البداية لكل هذا؟".

ضيّقت عينيّ وحاولت أن أعود للحظة بداية كل شيء.

"الرياح".

ضيق دكتور شيم عينه ليحاكي تعبيراتي وسأل:

"الرياح؟".

"من الصعب تفسير ذلك، هل ستستمر في الاستماع؟".

"بالطبع".

أخذت نفسًا عميقًا ثم حاولت سرد أحداث الأمس بأكبر قدر ممكن من التفاصيل، بدت القصة مملة ورتيبة عندما حكيتها، هبت الريح، وسقطت الأوراق، وصفعني شعر دورا المتطاير في وجهي، وفي تلك اللحظة كان قلبي يخفق.. لقد كانت قصة ليست لها حبكة أو سياق ولا يمكن اعتبارها حتى ثرثرة، لكن بينما كنت أتحدث، أصبح وجه الدكتور شيم أكثر رقة وانشراحًا، وبنهاية القصة، اعتلت وجهه ابتسامة عريضة، مد يده إليّ، فأخذتها، فصافحني بحرارة.

"تهانينا ، أنت تكبر، يا لها من أخبار رائعة!".

تابع بابتسامته المشرقة:

"كم زاد طولك منذ بداية العام؟".

"9 سم".

"مذهل! طفرة نمو سريعة، وكما ينمو جسمك ينمو عقلك أيضًا، أنا متأكد أن دماغك قد تغير قليلًا، إذا كنت طبيب مخ وأعصاب

لكنت طلبت فحصًا بالرنين المغناطيسي للتحقق من ذلك".

هززت رأسي، لم يكن التقاط صور لدماغي ذكرى سارة على الإطلاق.

"لا أفكر في ذلك الآن، أريد الانتظار حتى ينمو حجم اللوزة، ولا أعرف حتى ما إذا كان هذا يستحق الاحتفال، فأنا أشعر بغرابة، كما أني لم أحصل على قسط كاف من النوم أيضًا".

"هذا ما يحدث عندما تعجب بأحدهم".

"أتظن أنني معجب بها؟".

ندمت على طرح السؤال بمجرد أن سألته، أجاب الدكتور شيم وهو ما زال مبتسمًا:

"حسنًا، قلبك فقط من يعرف هذا".

"تقصد عقلي، وليس قلبي، نحن نفعل كل ما يأمرنا به العقل".

"منطقيًا هذا صحيح، لكننا ما زلنا نقول إنه القلب".

كما قال الدكتور شيم، كنت أتغير شيئًا فشيئًا، وكان لدي المزيد من الأسئلة، لكن ما يدعو للاستغراب أنني لم أرغب في مشاركتها مع دكتور شيم كما اعتدت أن أفعل من قبل، أخذت أثرثر لتخرج في النهاية أسئلة بسيطة غير مرتبة، فبدأت أسطر على الورق أفكاري المشتتة، اعتقدت أن ذلك سيصفّي ذهني، لكن بطريقة ما

كنت أكتب كلمات وأكررها، وليس جملًا، عندما أدركت ما كتبت، جعدت الورقة على الفور وقفزت من مقعدي.

استمرت الأعراض المزعجة، لا بل ازدادت سوءًا بمرور الوقت، نبض صدغي كلما رأيت دورا، وانتفضت أذني لسماع صوتها من بعيد ومن بين أصوات كل الناس، شعرت أن جسدي يتجاوز عقلي، وكان ذلك مزعجًا ولا داعي له، مثل أن ترتدي معطفًا طويلًا في الصيف، ثم تريد أن تخلعه، لكنك لا تستطيع.

57

زارتني دورا كثيرًا في المكتبة، لم يكن ميعاد زيارتها منتظمًا، فكانت أحيانًا تأتي في العطلات الأسبوعية وأحيانًا تأتي وسط الأسبوع، كنت أشعر بألم بعمودي الفقري عند رؤيتها، كحيوان استشعر زلزالًا وشيكًا، أو دودة زحفت هربًا قبل أن تهب عاصفة.

كلما شعرت بقشعريرة تسري في جسدي كنت أخرج من المكتبة، فقط لأرى رأسها يظهر في الأفق، أهرع إلى الداخل كمن رأى نذيرًا سيئًا، ثم أكمل عملي وأتظاهر أن كل شيء على ما يرام.

قالت درة إنها ستساعدني في ترتيب الكتب، لكن عندما كانت تجد كتابًا يعجبها، كانت تجلس وتقرأ نفس الصفحة لفترة طويلة، كانت مهتمة بموسوعات الحيوانات والحشرات والطبيعة، وجدت دورا الجمال في كل شيء، في التماثل المذهل ولمسة الطبيعة الرائعة

في درقة السلحفاة، أو بيض اللقلق، أو قصب المستنقع في الخريف، طالما قالت إن تلك الأشياء جميلة، كان بإمكاني فهم الكلمة، لكنني لم أشعر أبدًا بالروعة التي تتضمنها.

تحدثنا أنا ودورا عن الكون والزهور والطبيعة حتى أتى الخريف وانتهينا من تنظيم كتب المكتبة، عن حجم الكون، ووجود زهور تأكل الحشرات، وأسماك تسبح منقلبة رأسًا على عقب.

قالت دورا وهي تضع كتابًا ملونًا للأطفال مفتوحًا على ركبتيها:

"أتعلم؟ نحن نفترض أن كل الديناصورات ضخمة، ولكن في الواقع كانت هناك ديناصورات بحجم الكونترباص، تسمى كومبسوجناتوس أو أنيق الفك، لا بد أنه كان لطيفًا".

"أعرف هذا الكتاب، كانت أمي تقرأه لي عندما كنت صغيرًا".

"هل تتذكر والدتك وهي تقرأ لك؟".

أومأت برأسي، كان الهيبسيلوفودون بحجم حوض الاستحمام، والميكروسيراتوبس بحجم جرو، وطول مايكروباشيسيفالوصور كان نحو 50 سم، والموصور بحجم دب صغير، كنت أتذكر كل تلك الأسماء الطويلة الغريبة، ففغرت دورا فاها.

"هل تذهب إلى والدتك كثيرًا؟".

"نعم، كل يوم".

ترددت دورا للحظة ثم سألت:

"هل يمكنني زيارتها معك؟".

جاوبت دون تفكير:

"بالتأكيد".

***

وضعت دورا دمية ديناصور صغيرة بجانب نافذة غرفة أمي، كانت قد ابتاعتها في طريقنا إلى المستشفى، كانت المرة الأولى التي أزور فيها أمي بصحبة أحدهم، كنت أعرف أن دكتور شيم يزورها من وقت لآخر، لكن لم يقترح أي منا زيارتها معًا، نظرت دورا إلى أمي وابتسمت وأمسكت يدها بحرص وربتت عليها:

"مرحبًا، أنا دورا صديقة يون جيه، أنت حقًّا جميلة، يون جيه يبلي بلاء حسنًا في الدراسة، وهو بصحة جيدة أيضًا، عليك أن ترى ذلك بنفسك، أنا متأكدة أنك ستستيقظين قريبًا".

تراجعت دورا بابتسامة خافتة ثم همست لي:

"الآن حان دورك".

"ماذا؟".

"افعل مثلما فعلت".

قلت بصوت طبيعي عكس دورا التي كانت تهمس:

"أمي لا تستطيع سماعك على أي حال".

"لا أطلب منك الكثير، فقط ألقِ التحية".

دفعتني دورا بخفة.

اقتربت من أمي ببطء، بدت تمامًا كما كانت في الأشهر الأخيرة الماضية، لم أجرب هذا من قبل لذا بالكاد فتحت فمي.

"أتريدني أن أخرج وأفسح لكما بعض المجال معًا؟".

"لا".

"لو كنت أضغط عليك..".

في تلك اللحظة فقط، نطقت بكلمة "أمي"، ثم أخبرتها بهدوء عن كل ما حدث معي، كان هناك الكثير من الأشياء التي لم أخبرها بها بالطبع؛ لأن هذه كانت المرة الأولى التي أخبرها فيها بأي شيء، بحت بمكنون صدري ببطء، توفت جدتي وأنا الآن وحدي، التحقت بالمدرسة الثانوية، وقد مر الشتاء والربيع وكذلك الصيف وحل الخريف بالفعل، حاولت الإبقاء على المكتبة قدر المستطاع لكن انتهى بي الأمر بأخذ إجراءات غلقها، ولكنني لن أعتذر عن ذلك.

تراجعت بضع خطوات بعد الانتهاء من حديثي، ابتسمت لي دورا، وكانت أمي لا تزال تحدق في زخارف السقف، ومع ذلك، لم

يبدُ أن حديثي ضاع سدى، ربما كان الأمر يشبه خبز دكتور شيم لزوجته المتوفاة.

58

كلما اقتربت من دورا، شعرت أنني أخفي سرًّا عن جوني، وبالصدفة لم يلتق الاثنان بالمكتبة في الوقت نفسه قط، فلم يعد جوني يتردد على المكتبة كثيرًا كما اعتاد، ربما كان مشغولًا بأشياء أخرى، وعندما كان يفعل، كنت يشمني ويقول:

"ثمة شيء مريب بك، أشم رائحته".

"أي رائحة؟".

"شيء لا أعرفه".

ثم عبس فجأة وقال:

"هل هناك ما تخفيه عني؟".

"حسنًا..".

كنت سأخبره عن دورا لو ضغط علي أكثر من هذا، لكن لسبب ما توقف جوني عند هذا الحد.

بدأ جوني في ذلك الوقت تقريبًا التسكع مع طلبة من مدارس أخرى، كانوا معروفين بإثارة المشاكل، وبخشونتهم، كان بعضهم

مع جوني بنفس مركز الأحداث، وكانوا من نفس سنه أو أكبر، كان أحدهم سيئ السمعة واشتهر باسم "كعكة البخار"، رأيته ذات مرة في طريق عودتي من المدرسة وهو يتحدث إلى جوني، كان كعكة البخار على عكس لقبه يذكرني بالخيزران، كان طويلًا مثل الخيزران، وكان جسده رفيعًا مثل سيخ، وأطرافه نحيفة مثل الأغصان، ومع ذلك كانت له كفوف وأقدام غليظة كالكعكة، كان مثل دمية صنعت من عصا بينما كفاها وقدماها فقط صنعت من عجين غليظ، لكن السبب الحقيقي وراء لقبه هو براعته في سحق وجه من لا يروقه بيديه وقدميه الكبار ليجعله مثل كعكة لدنة على البخار.

"التسكع معهم ممتع، نفهم بعضنا بعضًا، أتعرف لماذا؟ على الأقل هم لا يحكمون علي مثل الآخرين، ولا يملون علي ما يجب أن أفعله".

أخبرني جوني بقصص سمعها من عصابة كعكة البخار، كان يراها مضحكة بينما لم أجدها ممتعة على الإطلاق، استمر جوني في التفوه بالترهات والقهقهة، كنت أستمع فقط كأقصى ما يمكنني فعله.

أبقت إدارة المدرسة عينها على جوني، واستمر الآباء في الاتصال والشكوى من سلوكه، علمت أنه إذا واجه مشكلة مرة ثانية فقد يضطر إلى الانتقال إلى مدرسة أخرى، وعلى الرغم من أن جوني كان ينام خلال الفصول الدراسية بدلًا من التسبب في المتاعب،

إلا أن سمعته كانت لا تزال تزداد سوءًا، وكثيرًا ما سمعت الطلبة يتحدثون عنه من وراء ظهره.

"هل علي أن أثير متاعب حقيقية إذًا؟ بما أن الجميع ينتظرني أن أفعل".

قالها جوني ماضغًا علكته بصخب ومتظاهرًا باللامبالاة، اعتقدت حينها أنها كانت مجرد ثرثرة من ضمن الأشياء العديدة التي يقولها، لكنها لم تكن مزحة، فبحلول منتصف الفصل الدراسي الثاني، تغير جوني، وبدا أنه يبذل قصارى جهده ليسقط في الهاوية، بدأ يلعن كل من تقابله عينيه كما حدث في بداية العام، وجلس في الفصل بذراعين معقودتين وساق فوق الأخرى ولم ينتبه للمعلمين عن قصد، وعندما يلفت المعلمون نظره، نظر إليهم بتبجح وتظاهر بتصحيح سلوكه بفتور، وواصلوا هم دون تعليق آخر لاستئناف فصلهم الدراسي بسلام.

كلما تصرف جوني على هذا النحو، كنت أشعر بثقل صخرة يشق صدري، يشبه إحساسي عندما لمس شعر دورا وجنتي، لكن هذه المرة كان مختلفًا، كان أثقل وينذر بالشؤم.

59

في بداية شهر نوفمبر، أمطرت بغزارة لتعلن عن أواخر الخريف، كنت قد أوشكت على الانتهاء من ترتيب المكتبة، فقد بعت كل الكتب

التي يمكنني بيعها، وكان يمكن التخلص من الباقي بسهولة، وهكذا كنت سأترك هذا المكان قريبًا، وجدت غرفة في سكن جديد وقررت البقاء مع دكتور شيم لبعض الوقت حتى الانتقال، نظرت إلى أرفف الكتب الفارغة، وبدا لي أن فصلًا في حياتي أصبح على وشك الانتهاء.

أطفأت النور واستنشقت رائحة الكتاب، كانت رائحته مألوفة مثل الخلفية المحيطة بي، لكن كان يشوبها شيء مختلف، أضاءت شرارة صغيرة بصدري فجأة، أردت أن أفهم ما بين السطور، وأردت أن أكون شخصًا يمكنه حقًّا فهم معنى كلمات المؤلف، وأردت التعرف على المزيد من الناس، وأن أجري معهم محادثات عميقة، وأعرف ماهية البشر الحقيقية.

في تلك اللحظة دخلت دورا إلى المكتبة، لم أقل مرحبًا، كنت أريد أن أخبرها سريعًا بشرارة قلبي قبل أن تنطفئ، فقلت:

"هل تعتقدين أنه يمكنني الكتابة يومًا ما؟ عن نفسي؟".

دغدغت نظرات دورا وجنتي، لكني أكملت:

"هل يمكنني أن أجعل الآخرين يفهمونني، حتى إن كنت أنا لا أفهم نفسي؟".

"فهم!".

قالتها دورا واستدارت بروية وفجأة ليصبح وجهها تحت ذقني

مباشرة، فلمست أنفاسها عنقي وبدأ قلبي يخفق.

"صه، قلبك ينبض بسرعة".

همست دورا، فلامست كلماتها التي خرجت من شفاهها البضة طرف ذقني ودغدغتني، وتنفستُ زفيرها بعمق رغمًا عني.

"هل تعرف سبب ارتفاع معدل نبضات قلبك الآن".

"لا".

"قلبك يصفق فرحًا عندما أكون بالقرب منه".

"حقًّا".

التقت أعيننا، ولم نتجنب النظر بعضنا لبعض، اقتربت دورا ببطء وهي تنظر إليّ، وقبل أن يتسنى لي التفكر كانت شفتاها على شفتي، شعرت وكأنهما وسادة رقيقة، ضغطت شفتيها الرطبة الناعمة على شفتي برفق، كانت صدورنا تعلو وتهبط ببطء، تعلو وتهبط، تعلو وتهبط، تعلو وتهبط، هكذا تنفسنا ثلاث مرات، قبل أن نخفض رؤوسنا فتفترق شفتانا وتتلامس جبهتانا.

قالت دورا وهي تنظر إلى الأرض:

"أعتقد أنني أفهمك قليلًا".

كنت أيضًا أنظر إلى الأرض، كان رباط حذائها مفكوكًا، وأحد طرفيه تحت قدمي، قالت:

"أنت لطيف، وطبيعي، لكنك أيضًا مميز، وهكذا أراك".

رفعت دورا وجهها وقد احمرت وجنتاها وسألت:

"أهذا كافٍ.. لأكون جزءًا من قصتك؟".

"ربما".

"إجابة غير مرضية".

ضحكت دورا، ثم وثبت خارجًا في لحظة.

استرخت ركبتي وجثوت ببطء، خلا ذهني تمامًا من الأفكار، وكان النبض يدق بكل أجزاء جسدي كالطبل، ووددت بشدة لو استطعت أن أوبخ جسدي قائلًا توقف، توقف، أعرف أنني ما زلت على قيد الحياة حتى لو لم تفعل كل هذه الجلبة، هززت رأسي عدة مرات، وأدركت أن هناك الكثير من الأشياء التي لم أكن أعرفها عن الحياة، عندها فقط، شعرت بعين تحدق بي وتخترق هالتي، كان جوني يقف خارج نافذة المكتبة، حدقنا بعضنا ببعض لبضع ثوان، كانت ابتسامة جوني باهتة، واستدار واختفى ببطء عن الأنظار.

60

نظمت المدرسة رحلة ميدانية إلى جزيرة جيجو، لم يرغب بعض

الطلبة بالذهاب، لكن ذلك لم يكن سببًا كافيًا لعدم الذهاب، ثلاثة طلاب فقط على مستوى المدرسة لم ينضموا إلى الرحلة، وكنت من ضمنهم، طالبان كانا يتنافسان في مسابقات رياضية، وأنا كان علي الاعتناء بأمي، وهو عذر كان على المدرسة قبوله.

ذهبت إلى المدرسة الهادئة وقرأت الكتب طوال اليوم، وكان مدرس العلوم الاحتياطي يتأكد من الحضور يوميًّا كإجراء شكلي، مرت ثلاثة أيام وعاد الطلبة من الرحلة، ولسبب ما كان الجميع مضطربين.

حدث ما حدث في اليوم الأخير من الرحلة، في الليلة التي سبقت العودة وبينما كان الكل نائمًا، اختفت الأموال التي جُمعت لشراء وجبات خفيفة للطلاب، فُتشت أغراض الطلبة وعثر على مظروف الأموال في حقيبة جوني، وكان به نصف المبلغ فقط، أنكر جوني ذلك، وفي الواقع كانت لديه حجة غياب، كان قد تسلل ليلًا للتسكع في شوارع وسط المدينة بجيجو ولم يعد حتى الصباح التالي، وشهد معه صاحب مقهى الألعاب الإلكترونية حيث قضى جوني الليل يلعب ويحتسي الجعة.

ومع ذلك، كان هناك اتفاق ضمني بين الجميع أن جوني هو من فعلها، بغض النظر إن كان قد جعل شخصًا آخر يسرقها من أجله، أو تآمر مسبقًا مع مجموعة على السرقة، فقد قرر الجميع أن جوني هو السارق.

لم يهتم جوني الذي عاد لتوه من الرحلة، وظل يغفو خلال الحصص، جاء البروفيسور يون إلى المدرسة بعد ظهر هذا اليوم، ورد المبلغ المسروق، دفن الطلاب أنوفهم في هواتفهم المحمولة طوال اليوم، وتبادلوا الرسائل النصية، كانت صافرة إشعارات برنامج كاكاوتوك[17] لا تتوقف، ولم أكن مضطرًا لقراءة رسائلهم لمعرفة ما كانوا يتحدثون عنه.

61

وصلت الأمور إلى ذروتها بعد عدة أيام، استيقظ جوني خلال درس اللغة الكورية في الحصة الرابعة وسار ناعسًا إلى الجزء الخلفي من الفصل، تجاهله المعلم واستمر في الشرح، لكن فجأة علا صوت مضغ علكة بفجاجة، كان جوني هو مصدر الصوت.

قال المعلم الذي كان على وشك التقاعد ولن يتساهل مع سلوك كهذا:

"أبصق هذه العلكة".

لم يستجب جوني، فقط ظل صوت علكته المزعج يقطع صمت الفصل.

17- كاكاوتوك: تطبيق للمراسلة والمكالمات على الهواتف الذكية. يستخدمه أكثر من 90% من مستخدمي الهواتف الذكية في كوريا. (المترجمة)

"ابصقها أو اخرج من الفصل".

بمجرد أن انتهى المعلم من جملته، بصق جوني العلكة لترسم قوسًا في سماء الفصل قبل أن تهبط عند حذاء أحد الطلبة، أغلق المعلم كتابه بعنف وقال:

"اتبعني".

عقد جوني يديه خلف رأسه واتكأ بظهره إلى الحائط ورد:

"لا أرغب في ذلك، ولكن ماذا يمكنك أن تفعل؟ تصحبني إلى غرفة المعلمين وتهددني وتستدعي هذا الوغد الذي يدعي أنه والدي؟ لو كنت تريد أن تضربني تفضل، أو تسبني، هيا! اخبرني ما الذي يمنعك؟ لماذا لستم متسقين مع أنفسكم؟ اللعنة".

لم يتغير تعبير المعلم بتاتًا، ربما كانت مهارة اكتسبها بعد عقود من التدريس، حدق المعلم في جوني بضع ثوان دون أن يتحرك قيد أنملة، ثم خرج من الفصل، سرت حالة من التوتر الصامت بين الطلبة في أعقاب خروج المعلم، وكلٌ حدق في كتابه وأبقى رأسه منخفضًا.

"أي وغد منكم يريد كسب بعض المال فليرني نفسه".

ضحك جوني في مكر.

"هل هناك من يريد كسب المال مقابل أن أوسعه ضربًا؟ حسنًا، لنقسم السعر إلى درجات، 10 لضربة عادية، 50 للنزيف، 200

لكسور، ألن يتطوع أحد؟".

كان صوت أنفاس جوني المتلاحقة يتردد في أرجاء الفصل.

"لماذا تجلسون هكذا وتضيعون فرصة كسب أموال إضافية لصرفها في المقصف؟ كيف ستنجون في هذا العالم القاسي بكل هذا الجبن؟ ايها الحمقى المجانين".

قال جوني العبارة الأخيرة بكل قوته حتى ترددت أصداؤها في ردهة الفصول، كان جسده يرتجف، وفمه أيضًا يرتجف بابتسامة بلا معنى، للدقة بدا وكأنه على وشك البكاء، قلتُ:

"توقف".

لمعت عيون جوني:

"ماذا قلت؟".

نهض جوني ببطء من مقعده وأكمل:

"أتوقف ثم ماذا؟ أكتب خطاب اعتذار وأنحني أسفًا؟ أركع وأطلب المغفرة؟ لماذا لا تخبرني بالضبط ماذا أفعل؟ ماذا علي أن أفعل أيها الأحمق اللعين!".

لم أستطع الرد، ذلك لأن جوني كان يلقي بأي شيء تطوله يداه هنا وهناك، صم صراخ الفتيات وتأوهات الصبيان أذني مثل نغمات نشاز لجوقة ما، عمت الفوضى الفصل في غضون ثوانٍ لدرجة أنني تساءلت كيف حطم جوني كل شيء في هذه الفترة القصيرة، كانت

المكاتب والكراسي مقلوبة وكادت اللوحات والجداول المثبتة على الحائط أن تقع، بدا الأمر كما لو كان جوني قد أمسك الفصل بأكمله وخضّه، التصق الطلبة بالحائط كما لو كان هناك زلزال، ثم سمعت صوتًا أتى من مكان ما، كانت همهمة لكنها واضحة، وخرقت أذني مثل الصراخ:

"أيها الحثالة..".

استدار جوني نحو الصوت، كانت دورا تقف هناك:

"اغرب عن وجهي، ولا تُعِث فسادًا هنا، عد إلى حيث تنتمي".

كان وجه دورا.. تعلوه نظرة لم يمكنني فهمها، كانت ملامحها مختلفة، عيونها مرفوعة وأنفها منتفخ قليلًا، وارتفعت زوايا شفتاها كما لو كانت مبتسمة لكنها كانت أيضًا ترتجف بطريقة ما.

فُتح باب الفصل وجاء معلم الصف مهرولًا برفقة معلمين آخرين، لكن قبل أن يتمكنوا من فعل أي شيء، كان جوني قد تسلل سريعًا من الباب الخلفي، ولم ينادِه أو يلاحقه أحد، ولا حتى أنا.

62

أتى جوني إلى المكتبة في المساء، جال بين الأرفف الفارغة بلا هدف وهو يحدثني.

"كنت جيدًا يومها، الإنسان الآلي يعرف الآن كيف يحب، ولديه

حبيبة تأخذ صفه، لقد فاجأتني عندما طلبت مني أن أغرب عن وجهها، يا لحظك يا صاح، تحصل على الكثير من الأشياء التي لا يمكنك حتى الشعور بها".

خانتني كل الكلمات، لوح جوني بيده أن لا داعي للقلق من كلام يقال بيننا فقط، وأكمل:

"لكن لدي سؤال واحد لك".

نظر جوني إلي مباشرة وقال:

"هل تعتقد أيضًا أنه أنا من فعلها؟".

أخيرا أفصح جوني عما أتى من أجله، أجبته قائلًا:

"أنا لم أذهب حتى للرحلة".

"فقط أجبني، هل تعتقد أنه أنا؟".

"هل تسأل عن الاحتمالية؟".

"نعم، الاحتمالية، احتمالية أنني فعلت ذلك".

"من المحتمل أن يكون أي شخص قد فعلها".

"ولكن من الأرجح أنه أنا؟".

أومأ جوني برأسه وابتسم.

"حقيقة..".

قلتها ببطء ثم أكملت:

"أنا لست مندهشًا من أن الجميع يعتقد أنه أنت، لديهم الكثير من الأسباب للتفكير بهذه الطريقة، ربما لا يمكنهم اتهام أي شخص آخر".

"أتفهم ذلك، وأنا أيضًا أعتقد هذا، لذا لم أصر على براءتي، أخبرتهم مرة واحدة فقط أنه ليس أنا، لكن دون فائدة، لذا لم أرهق نفسي بالتبرير ولزمت الصمت، لكن المبجل أبي -كما يدعي- دفع المبلغ على الفور دون حتى أن يسألني، لا بد أنه كان بضعة آلاف وون، ألا يدعو هذا للفخر؟".

لم أقل شيئًا، كذلك بقي جوني صامتًا لبعض الوقت ثم قال:

"لكني لم أفعلها".

ارتفعت نبرة صوته قليلًا، ومرت وهلة قبل أن يكمل:

"أعني، ربما ينبغي أن أعيش بالضبط كما يتوقع الناس مني أن أكون، لنكن صادقين، هذا ما أبرع فيه".

"ماذا تقصد؟".

"أخبرتك ذات مرة أنني أريد أن أكون قويًا، فكرت كثيرًا في هذا الأمر، كيف أكون قويًا؟ يمكنني أن أدرس بجد، أو أتدرب لأثقل جسدي ويصبح قويًا، لكن كل هذا لن يفلح معي، لقد فات الأوان، لقد هرمت".

كررت كلماته:

"هرمت؟".

وعندما نظرت إليه، اعتقدت للحظة أنه قد يكون على حق، أومأ جوني برأسه.

"نعم، لقد هرمت، أصبحت أكبر من أن أتغير".

"وماذا في ذلك؟".

"سأصير أقوى، مثل الحياة التي عشتها، بالطريقة الطبيعية المقدرة لي، أريد الفوز، فلو لم أتمكن من حماية نفسي من الأذى، فأفضل أن أكون أنا المؤذي".

"كيف؟".

"لا أعرف، لكن لن يكون ذلك صعبًا، لأنه عالم مألوف بالنسبة لي".

ابتسم جوني، أردت أن أقول شيئًا لكنه كان في طريقه بالفعل للخروج، لكنه قال قبل أن يخرج:

"قد لا نرى بعضنا بعضًا من الآن فصاعدًا، لذا بدلًا من قبلة الوداع ، خذ هذا".

غمز جوني بعينه ورفع إصبعه الأوسط ببطء، وابتسم ابتسامة لطيفة، كانت تلك آخر مرة رأيته فيها يبتسم بهذه الطريقة، ثم اختفى.

وتطورت بعدها المأساة سريعًا.

الجزء الرابع

63

اتضح أن اللص الحقيقي كان طالبًا آخر، وهو ذاته الطالب الذي سألني في بداية العام الدراسي عن شعوري بعد مقتل جدتي، ذهب إلى معلمة الفصل واعترف بأنه خطط لكل ذلك، ولم يكن غرضه المال، بل الإيقاع بأحدهم ورؤية رد فعل الآخرين، وعندما سألته المعلمة لماذا فعل هذا، أجاب ببساطة "اعتقدت أن الأمر سيكون ممتعًا".

ومع ذلك، لم يشعر أحد بالأسف تجاه جوني؛ لأنه بغض النظر

عما إذا كان قد سرق أم لا، فإن يون لي سو كان سيثير المتاعب عاجلًا أم آجلًا، لمحت مثل تلك العبارات بطرف عيني في غرف دردشة بين الطلاب على هواتفهم المحمولة.

***

بدا وجه البروفيسور يون شاحبًا وهزيلًا كما لو لم يأكل منذ أيام، اتكأ على الحائط وفتح شفتيه الجافتين.

"لم أضرب أي شخص طوال حياتي، لم أعتقد قط أن العنف سيحل أي شيء، لكني ضربت لي سو مرتين، ولم أستطع التفكير في أي طريقة أخرى لإيقافه".

"إحدى تلك المرات كانت في مطعم البيتزا، رأيتكم من النافذة".

أومأ البروفيسور:

"توصلت لاتفاق مع صاحب المطعم، لحسن الحظ لم يتأذَّ أحد وحُلت المشكلة، أجبرت ابني على ركوب السيارة في ذلك اليوم وعدنا إلى المنزل، لم ننطق بكلمة واحدة طوال الطريق ولا حتى بعد عودتنا، لأنني دخلت إلى غرفتي على الفور".

بدأ صوت البروفيسور يون يرتجف:

"لقد تغيرت الأمور كثيرًا منذ عودته، لم أجد حتى الوقت للحزن على وفاة زوجتي، لا بد أنها حلمت بالعيش معًا تحت سقف واحد،

لكنني وجدت العيش معه غير مريح على الإطلاق، لم أتوقف عن التفكير لثانية واحدة، حتى عندما أقرأ كتابًا أو أستلقي على سريري، لماذا نشأ هكذا؟ من عليه اللوم فيما وصل إليه هذا الصبي؟".

أخذ الأستاذ نفسًا عميقًا لوهلة واستمر في الحديث مرة أخرى.

"عندما يمتلئ القلب بالحزن وخيبة الأمل، وتنعدم الحلول والإجابات، ويبدأ الناس في التفكير بالأفكار السيئة، وقد فعلت ذلك أيضًا.. غالبًا ما كنت أتخيل كيف ستكون الحال لو لم يكن هنا، لو لم يعد أبدًا..".

بدأ البروفيسور يرتجف.

"أتعرف ما الأكثر فظاعة.. ماذا لو لم يولد في المقام الأول، أعتقد أن كل شيء سيكون أفضل مما نحن عليه الآن، نعم، كان لدي مثل هذه الأفكار الفظيعة عن ابني من لحمي ودمي، يا إلهي، لا أصدق أنني أخبرتك بكل هذا للتو..".

انهمرت دموعه على رقبته وسترته، وسرعان ما أجهش بالبكاء حتى إنني لم أستطع تفسير ما يقول، أعددت كوبًا من الكاكاو الساخن ووضعته أمامه.

"سمعت أنك قريب جدًّا من لي سو، وأنك أتيت إلى منزلنا مرة من قبل، كيف ما زلت قادرًا على فعل ذلك بعد كل ما حدث بينكما؟".

نظر إليّ البروفيسور يون، قلت أبسط إجابة أمكنني قولها.

"لأن جوني فتى طيب".

"هل تعتقد ذلك؟".

نعم، كنت أعرف أن جوني فتى طيب، ومع ذلك إذا تحدثت عنه بالتفصيل، لا يسعني سوى قول إنه ضربني وأذاني، كما أنه عذب فراشة، واستفز المعلم وألقى أشياء على زملائه الطلبة، هكذا هي اللغة، يصعب من خلالها إثبات أن لي سو هو ذاته جوني، لذلك قلت ببساطة.

"أنا فقط أعرف أنه كذلك".

ابتسم بروفيسور يون لكلماتي ابتسامة دامت نحو ثلاث ثوان ثم تلاشت فجأة، وانتحب من جديد.

"شكرًا لأنك تفكر فيه بهذه الطريقة".

"لكن لماذا تبكي؟".

"أبكي لأنني لم أستطع أن أرى ابني بنفس الطريقة، ولأنه من المؤسف أن أشعر بالامتنان لسماع شخص آخر يقول بحقه هذا الكلام".

تلعثم بروفيسور يون إثر بكائه، وطلب مترددًا معروفًا أخيرًا قبل أن يغادر:

"إذا تواصلت مع لي سو، هل تخبره بأنني أنتظر عودته؟".

"ما زلت تنتظر عودته؟".

"أشعر بالخجل كوني راشدًا أقول هذا الكلام، لكن أمورًا كثيرة حدثت واحدة تلو الأخرى دون توقف، حتى إنني لم أجد وقتًا لأمعن النظر وأهتم بكل منها على حدة، ولكني أطمع في فرصة أخرى للبدء من جديد".

وعدت البروفيسور قائلًا:

"سأخبره".

***

تواردت إلى ذهني أفكار كثيرة ومختلفة، إذا تمكن البروفيسور من العودة بالزمن، هل كان سيختار ألا ينجب جوني؟ لو كان قد فعل هذا، لما فقدوه ولما مرضت زوجته من الشعور بالذنب وماتت من الندم، وكل المشاكل التي قد فعلها جوني لم تكن لتحدث أيضًا، وهكذا ربما كان من الأفضل فعلًا ألا يولد جوني على الإطلاق، لأن وقبل كل شيء آخر، لما كان سيشعر هو بأي ألم أو حسرة، لكن إذا فكرنا بهذه الطريقة فكل شيء سيفقد معناه، وتبقى الغاية فقط، ناقصة.

***

كان الفجر على وشك البزوغ وكنت ما زلت مستيقظًا، كان لدي ما أقوله لجوني، كنت أريد أن أتأسف له، لتظاهري بأنني هو أمام

والدته، ولأنني لم أخبره أن لدي صديقة أخرى، وأخيرًا لأنني علمت أنه لم يسرق ولم أخبره أني أصدقه.

64

كان عليّ أن أجد جوني، وكان هذا يعني أن علي أولًا العثور على هذا الصبي الذي يدعى كعكة البخار، كانت المدرسة التي يرتادها كعكة البخار تقع وسط حي يشتهر بالدعارة، كان غريبًا أن يقرر أحدهم بناء مدرسة في مثل هذا المكان، ربما شيدت المدرسة أولًا ثم حاوطتها هذه البيئة القذرة، لكن على كل كانت هذه هي حالها، كانت شمس الظهيرة صفراء وكان هناك شباب لا يبدو أنهم طلاب يدخنون حول فناء المدرسة.

دفعني بعض الصبية الذين كانوا يتسكعون حول مدخل المدرسة وأنا في طريقي للدخول، فأخبرتهم أنني أتيت لمقابلة كعكة البخار، كان هو الشخص الوحيد الذي يمكنني سؤاله عن مكان جوني، فقد يعرف الأماكن التي تستضيف شخصًا مثل جوني وترحب به.

سار كعكة البخار نحوي على مهل، كان نحيفًا وظله يشبه السيخ أو الخيزران، وعندما نظرت عن كثب، أدركت ضخامة كفيه وقدميه ووجهه لدرجة أنني شعرت وكأنها فاكهة تتدلى من أغصان، أومأ كعكة البخار فتناوب أعوانه على وخزي في ضلوعي

وتفتيش جيوبي، وعندما أدرك أنني ليس لدي ما أقدمه، سألني:

"ماذا يريد طالب مهندم مثلك مني؟".

"جوني مختفٍ، واعتقدت أنك قد تعرف مكانه، لا تقلق، مهما كان ما ستخبرني به لن أنقله للكبار".

على غير المتوقع أجاب كعكة البخار على الفور:

"السلك الحديدي".

هز كتفيه وأمال رأسه عدة مرات من جانب إلى آخر، فأصدر صوت طقطقة عاليًا.

"فتى جوني المدلل، يبدو أنك تبحث عن شقيقك، أقولها لك، لا علاقة لي بهذا الأمر، وهو خارج عن نطاق سلطتي، ففي النهاية ما زلت طالبًا".

استدار وهو ينقر على حقيبته، لم يعلق لقب السلك الحديدي بذهني لذا سألته بإيجاز:

"أين هو؟".

هز كعكة البخار وجنتيه:

"أستذهب له حقًّا؟ لا أنصح بذلك".

"نعم".

أجبت باقتضاب، لم يكن لدي وقت لمراوغته، طقطق كعكة البخار بلسانه مرتين مترددًا، ثم أعطاني اسم مدينة ساحلية ليست ببعيدة.

"هناك متجر أحذية قديم في نهاية زقاق السوق يبيع أحذية للرقص، هذا كل ما أعرفه لأني لم أذهب هناك قط، أتمنى لك حظًا طيبًا، لكنها أمنية لن تتحقق".

أشار بأصابعه مكونًا مسدسًا وهميًّا موجهًا إلى رأسي، ثم أطلقه في فمه وتوارى عن الأنظار.

65

زارتني دورا قبل أن أذهب للبحث عن جوني، جلست صامتة لوهلة قبل أن تعتذر:

"لم أكن أعرف أنه صديقك، لو كنت أعرف لما كنت وبخته هكذا، لكن كان على شخص ما أن يوقفه".

بدت هادئة في البداية لكنها انفعلت بنهاية جملتها، وأكملت:

"لكن ما أريد معرفته حقًّا، كيف انتهت بك الحال صديقًا لشخص مثله؟".

شخص مثله، نعم، كنت متأكدًا أن الجميع يفكر به على هذا

النحو، حتى أنا فعلت في وقت ما، أخبرت دورا بما أخبرت به دكتور شيم، اعتقدت أنني سأفهم ما حدث لأمي وجدتي إذا تعرفت على جوني، أردت أن أتطلع ولو على سر واحد من أسرار هذه الحياة.

"وهل اطلعت عليه؟".

هززت رأسي نفيًا ثم قلت:

"لكنني اكتشفت شيئًا آخر".

"وما هو؟".

"جوني".

هزت دورا كتفيها ورأسها، وسألتني لآخر مرة:

"لكن لماذا عليك أن تبحث عنه؟".

وكان جوابي:

"لأنه صديقي".

66

كان نسيم البحر هناك مالحًا وتفوح منه رائحة السمك، وكانت تلك الرائحة تمحو الإحساس بالفصول والاتجاهات، وصلت إلى السوق وكأن الريح دفعتني لهناك، اصطف الناس للشراء من

مطعم شهير للدجاج الحلو والحامض.

اتضح أن كعكة البخار لم يكن جيدًا في الوصف، لأنني لم أجد متجرًا لبيع أحذية الرقص حتى بعدما سألت، وبعد الكثير من التجول، دلفت إلى زقاق يشبه المتاهة، كان الطريق متشابكًا فذهبت حيث أخذتني قدماي.

حل ظلام الشتاء سريعًا، اعتقدت أن النور بدأ يحتجب تدريجيًّا لكن سرعان ما أظلمت السماء بغتة كما لو كنا في منتصف الليل، سمعت صوتًا غريبًا آتيًا من مكان ما، بدا وكأنه صرير أو صرخة جرو حديث الولادة، ثم اختلط الصوت مع أصوات وضحكات أخرى، التفت إلى حيث تصدر الأصوات فرأيت مدخلًا مواربًا لمبنى مظلم، كانت بوابة حديدية رثة تتأرجح في مهب الريح، سمعت ضحكة ساخرة، وفجأة سرت قشعريرة غريبة في جسدي، حاولت التفكير في كلمة تصف الموقف، كان شيئًا مألوفًا لكني لم أستطع تذكر الكلمة.

رأيت زوجًا من الأحذية ذات النعال العالية ملقاة عند المدخل، كانت ملونة وفاخرة ومطلية بلون الذهب، وعندما اقتربت وقلبت الحذاء رأيت نعلًا مغطى بالجلد، مثل أحذية الرقص اللاتيني، وكما لو كان الحذاء يوجهني إلى أين علي أن أذهب، أشارت مقدمته إلى سلالم ممتدة للأسفل، توجهت ببطء نحو الدرج، كانت هناك صناديق مكدسة في نهايته ويليها باب حديدي ثقيل آخر.

اقتربت من الباب، كان به مزلاج فولاذي كبير، وكان من المفترض أن يفتح بسهولة من ناحيتي لكنه استغرق بعض الوقت بسبب الصدأ، لكني تمكنت أخيرًا من فتح المزلاج ودفعت الباب.

***

كانت الفوضى تعم أرجاء المكان، وأكوام من القمامة متناثرة في غرفة رثة وقذرة، بدا الأمر وكأنه نوع من الأوكار، لكن كان من الصعب تخمين ما يحدث داخله.

سمعت حفيفًا، وفي اللحظة التالية التقت أعيننا، كان جوني رابضًا على الأرض معانقًا ركبتيه، كان المسكين يجلس وحيدًا وبدا رثًا أكثر من ذي قبل، ديجا فو، كانت تلك هي الكلمة التي كنت أبحث عنها، ومضت في ذهني مشاهد من برنامج "سباق العائلة"، صرخة صاحب المتجر، وصورتي عندما كنت صغيرًا، واللحظة التي جذبتني فيها أمي لعناق حار بمركز الشرطة، وجرى الزمن للحظة انهيار امرأتين أمام عيني. هززت رأسي، لم يكن الوقت مناسبًا لمثل تلك الأفكار، مَن أمامي الآن ليس ابن صاحب المتجر المتوفى، لكنه جوني الذي ما زال على قيد الحياة.

67

رفع جوني عينيه وحدق بوجهي، لا عجب أنني آخر شخص قد

توقع حضوره، نطق جوني بالكاد بصوت خشن.

"ما الذي تفعله هنا؟ كيف جئت؟ اللعنة..".

كان وجهه مليئًا بالكدمات والندوب، وبدا شاحبًا.

"ذهبت إلى كعكة البخار، وقبل أن تسأل، لا لم أخبر أي شخص آخر، بما في ذلك والدك".

قبل إنهاء كلمة "والدك"، أمسك جوني علبة شراب فارغة بجانبه وألقى بها، فطارت في الهواء واصطدمت بالأرض المغبرة ودارت عدة مرات.

"ماذا حدث لك؟ دعنا نتصل بالشرطة أولًا".

"شرطة؟ يا لك من مهرج، تطاردني هكذا مثل المحققين".

قالها جوني وانفجر ضاحكًا، كان ضحكًا غريبًا وعاليًا ودون داع، وأمسك بطنه بيده وانقلب على قفاه مقهقهًا، وتمتم بعبارات مثل هل تعتقد أنني سأشكرك على هذا، قاطعته قائلًا:

"لا تضحك هكذا، لا يليق بمظهرك الحالي، ولا يبدو حتى ضحكًا حقيقيًا".

"هل علي أن أتعلم كيف أضحك من أبله مثلك؟ أنا أفعل ما أريد وأمكث أينما أريد، لماذا أتيت إلى هنا ولماذا تتدخل في حياتي يا مجنون، من تظن نفسك؟ من تظن نفسك بحق الجحيم..".

خفتت صرخات جوني، وراقبت بصمت جسده الهزيل يرتجف، قد تغير وجهه كثيرًا في غضون أيام قليلة، ظلل سواد ما بشرته الخشنة، شيء ما قد غيره بشكل جذري، قلت له:

"لنعد للبيت".

تذمر جوني وقال:

"تبًّا، لا تتصرف بكل هذه الأريحية، كف عن الهراء واخرج من هنا حالًا قبل فوات الأوان".

"ماذا تفعل هنا؟ هل تعتقد أن تحمُّل كل هذا يجعلك قويًّا؟ هذه ليست قوة، هذا مجرد تظاهر بالقوة".

"لا تتظاهر بأنك تعرف كل شيء يا عنجهي، ماذا تعرف أنت يا أحمق؟".

صرخ جوني في، لكن الغريب أن عينيه بدأتا تتسعان، كان هناك صوت خطى خافتة، وقبل أن أدرك كان قد وصل إلى المدخل بوتيرة سريعة، تألم وجه جوني وهو يقول:

"أخبرتك أن تخرج".

كان صاحب الصوت قد وصل بالفعل.

بدا وكأنه ظل عملاق أكثر من كونه إنسانًا، وهيئته توحي بأنه في العشرينيات أو منتصف الثلاثينيات، كان يرتدي معطفًا ثقيلًا رثًّا، وسروالًا قصيرًا بنيًّا، وقبعة صيادين، لم أستطع رؤية وجهه جيدًا لأنه كان يضع قناعًا أيضًا، كانت ملابسه وهيئته غريبة، كان هذا هو السلك الحديدي.

مكتبة
t.me/soramnqraa

سأل السلك الحديدي جوني:

"من هذا؟".

إذا قدر للأفاعي أن تتحدث، فسيكون صوتها مثله تمامًا، عض جوني على شفتيه فأجبت بدلًا منه:

"أنا صديق جوني".

ارتفع حاجبا السلك الحديدي لأعلى، فظهرت بعض التجاعيد الأفقية على جبهته:

"وكيف عرف صديقك هذا المكان؟ بل والأدهى.. كيف جرؤ على المجيء إلى هنا".

"أتيت لاصطحاب جوني".

جلس السلك الحديدي ببطء على كرسي متهالك، فطوى ظله الطويل إلى النصف.

"أعتقد أن لديك فكرة خاطئة، هل تظن نفسك بطلًا من نوع ما؟".

تمتم بصوت منخفض، كانت نبرته ناعمة، وقد تبدو ودية للوهلة الأولى إذا لم تنتبه جيدًا لفحوى الكلام، قلت:

"جوني لديه أب، ويجب أن يعود لبيته".

وبخني جوني قائلًا:

"اخرس".

ثم همس بشيء للسلك الحديدي الذي أومأ برأسه عدة مرات ثم قال:

"آه، أنت ذلك الصبي، لقد أخبرني جوني عنك، لم أكن أعرف أن هذا المرض موجود بالفعل، لا عجب أن تعبيرك لم يتغير كثيرًا عندما دخلت، عادة يتفاعل الناس مع مقابلتي بشكل مختلف".

كررت ما قلته.

"أنا وجوني سنخرج من هنا، دعنا نذهب".

سأل السلك الحديدي:

"ماذا ستفعل يا جوني؟ هل تريد المغادرة مع صديقك؟".

اعتقدت أن جوني كان يعض على شفتيه، لكن سرعان ما تحول

ذلك إلى ابتسامة وقال:

"هل أنا مجنون لأغادر مع هذا الأحمق".

"رائع، الصداقة الحقيقية هي التي تزداد قوة مع الوقت، يبدو أن هذا مجرد كلام، كلام فارغ يمتلئ به هذا العالم".

قام السلك الحديدي من فوق الكرسي وانحنى قليلًا ليخرج شيئًا من معطفه، كان سكينًا حادًّا ورفيعًا ومدببًا، وكان نصله يعكس الضوء ليتلألأ بوميض يعمي الأبصار، قال السلك الحديدي لجوني:

"هل تذكر عندما عرضت عليك ذلك؟ أخبرتك أنك ستستخدمه يومًا ما".

فغر جوني فاه ببطء، فأشار السلك الحديدي له بنصل السكين وقال:

"هيا استخدمه".

ابتلع جوني ريقه بصعوبة، كانت أنفاسه متلاحقة وأخذ صدره يعلو ويهبط.

"انظر إلى حالك، لا بد أنك خائف، هذه هي المرة الأولى لك، لذا لا داعي للتسرع، خذ الأمور ببساطة واستمتع".

ابتسم السلك الحديدي وخلع قبعته ببطء، رأيت حينها وجهًا

مألوفًا، لم يستغرق الأمر وقتًا طويلًا حتى أتذكره، كان يشبه تمثال ديفيد لمايكل أنجلو أو أحد رموز الجمال الأيقونية التي تظهر في كتب مادة الفنون، كان للسلك الحديدي الجمال الأخاذ، بشرة بيضاء صافية وشفاه وردية وشعر بني فاتح ورموش طويلة تزين عيونًا واسعة وجذابة، أعطى الله وجه ملاك لمن لا يستحقه.

69

كان السلك الحديدي زميل جوني الأكبر سنًّا في مركز الأحداث، عاصره جوني لفترة وجيزة ومن بعيد، كانت حكايات وملاحم السلك الحديدي خطيرة لدرجة أنها كانت تحكى على أضيق نطاق وفي الخفاء، وفقًا لإحدى الإشاعات فقد حصل على لقبه بعد أن استخدم سلكًا حديديًّا بأحد جرائمه، كان جوني يخبرني بقصص السلك الحديدي التي سمعها في مركز الأحداث بإسهاب كما لو كان يروي بطولات أحد العظماء.

اعتقد السلك الحديدي أن العمل تحت سلطة أحدهم والتعلم والاندماج في المجتمع شيء ممل، كان قد صمم عالمًا خاصًّا ومستقلًّا، وتمادى إلى نقطة لم يسبقه إليها أحد من قبل، ويبدو أن العديد من الصبية قد فتنوا بعالمه الغريب، وكان جوني واحدًا منهم.

أخبرني جوني في إحدى ليالي الصيف:

"يعتقد السلك الحديدي أن على كوريا ترخيص استخدام البنادق أيضًا، وهكذا سنرى حوادث إطلاق نار عشوائي مثل التي تحدث أحيانًا في الولايات المتحدة والنرويج، ويمكننا التخلص من عديمي الفائدة والحمقى دفعة واحدة بهذه الطريقة، أليس هذا رائعًا؟ هذا الرجل قوي حقًّا".

"هل تعتقد أن هذه هي القوة؟".

"بالطبع، إنه لا يخاف أحدًا، مثلك، وأنا أريد أن أكون كذلك أيضًا".

كانت هذه الليلة التي أخبرني جوني فيها بكل شيء عن نفسه.

70

كانت يد جوني الواقف أمامي ممسكة بالسكين، كان يلهث، فسمعت صوت أنفاسه العالية كما لو كان يتنفس في أذني، ماذا يحاول أن يفعل؟ وماذا يريد أن يثبت؟ لمعت عيناه المتذبذبتان مثل بلورات كبيرة، سألته بهدوء:

"دعني أطرح عليك سؤالًا واحدًا، هل هذا ما تريده حقًّا؟".

لكن كانت إحدى خصال جوني مقاطعة كلام الآخرين، فركلني بقوة في جانبي قبل أن أنهي كلامي، اصطدمت بالنافذة إثر قوة ركلته، وتحطم الزجاج حولي على الأرض.

هناك صبية يتفاخرون بأي عمر سرقوا أو واعدوا فتيات لأول مرة، أو ما ساقهم إلى مركز الأحداث، كانوا بحاجة لمثل تلك القصص لينضموا للعصابات، ربما تعرض جوني للضرب المبرح من فتية آخرين للانضمام لعصابة السلك الحديدي، لكن بالنسبة لي كانت كل هذه الأشياء مجرد دليل على ضعفهم؛ لأنهم متعطشون إلى القوة.

جوني الذي أعرفه كان مجرد صبي أهوج يبلغ من العمر سبعة عشر عامًا، رقيقًا ويتظاهر بالقوة.

سألته مرة أخرى:

"هل هذا ما تريده حقًّا؟".

شهق جوني، فأكملت:

"أنا لا أعتقد ذلك".

"اخرس".

"لا أعتقد أن هذا ما تريده يا جوني".

"اخرس أيها الوغد".

"أنت لست هذا الشخص".

"عليك اللعنة".

صرخ جوني بصوت تشوبه الدموع، لا بد أن مسمارًا في الحائط قد وخز ساقي، لأنها كانت تنزف، بكى جوني مثل الأطفال عندما رأى ذلك، نعم، هذا هو جوني، شاب يتألم ويدمع لرؤية قطرة دم تسيل من شخص آخر.

"قلت لك، أنت لست ذلك الشخص".

أشاح جوني بوجهه ورفع ذاعه ليغطي عينه وارتجف جسده.

"هذا هو أنت يا جوني، أنت بكل جوانبك".

تمتم جوني باكيًا:

"يا لحظك.. لا تشعر بأي شيء.. ليتني فقط كنت مثلك..".

قلت له:

"هيا بنا".

مددت له يدي:

"فلنخرج من هنا".

"اخرج أنت يا أحمق، أنا لا أرافق أشخاصًا مثلك".

توقف جوني أخيرًا عن البكاء، وبدأ يلعنني ويمطرني بوابل من الشتائم كما لو كان هذا متنفسه الوحيد، أخذ ينبح في وجهي مثل كلب هائج، رفع السلك الحديدي يده وقال لجوني آمرًا:

"كفى.. فلنوقف هذه الدراما الطفولية".

ثم التفت إليّ.

"خذه إذا أردت، لكن لا يمكنك أن تفعل بهذه البساطة، تبدو أنها صداقة عظيمة، فلا بد أن تقدم شيئًا ما لصديقك".

فرك السلك الحديدي ذقنه، واكفهر وجه جوني تمامًا:

"إذًا، ماذا الذي يمكنك فعله من أجل جوني؟".

كانت نبرة صوته عذبة، وترتفع بلطف في نهاية الجمل مع ابتسامة وديعة، تعلمت أن هذا يعكس نية طيبة، لكني أعلم الآن أنه لن يتصرف بلطف بأي حال من الأحوال، فرددت على النحو التالي:

"أي شيء".

ربما لم يتوقع السلك الحديدي ما قلته، فاتسعت عيناه وأطلق صافرة هادئة.

"أي شيء؟".

"نعم".

"حتى الموت؟".

تمتم جوني:

"اللعنة".

مدد السلك الحديدي جسده مستمتعًا:

"حسنًا لنرَ، أريد أن أعرف إلى أي مدى يمكنك التحمل من أجل هذا الوغد".

ابتسم السلك الحديدي وأكمل:

"لا تقسُ على نفسك، إذا لم تتحمل، فهذا دليل على أنك فقط إنسان عادي".

أغمض جوني عينيه بإحكام عندما اقترب السلك الحديدي مني ببطء، بينما نظرت أنا إلى مصيري بعين لا ترجف.

71

سألني الناس لاحقًا لماذا فعلت هذا، لماذا لم أهرب وبقيت حتى النهاية، أخبرتهم أن ما فعلته كان الأسهل بالنسبة لي، كان الشيء الوحيد الذي يمكن لشخص لا يعرف الخوف أن يفعله.

***

غبت وعدت إلى الوعي عدة مرات مثل ومضات الفلوريسنت، وكلما عدت إلى الوعي شعرت بآلام قوية، كانت قوية لدرجة جعلتني أتساءل لماذا صُمم جسم الإنسان لتحمل كل هذا الألم، وأتعجب كيف لم أفقد الوعي تمامًا حتى الآن.

رأيت لمحات من جوني، أحيانًا بشكل ضبابي، وأحيانًا بوضوح تام، يبدو أن عقلي كان به خطب ما، رأيت مدى خوفه، وأظن أنني استطعت آن ذاك أن أفهم قليلًا معنى الخوف، بدا الأمر وكأنه يلهث بشدة بحثًا عن هواء في مكان خالٍ من الأكسجين.. هكذا نظر جوني إليّ.

أصبح وجه جوني ضبابيًا، اعتقدت أن رؤيتي تأثرت من الضرب، لكنها لم تكن كذلك، كانت الدموع تنهمر على وجنتي جوني وبدأ ينتحب ويصرخ، توقف أرجوك توقف، اضربني بدلًا منه، بدا صراخه أبديًا، حاولت أن أهز رأسي لأخبره أنه لم يكن مضطرًا لقول ذلك، لكنني كنت منهكًا بالفعل.

72

تبادرت إلى ذهني ذكرى حدثت منذ بضعة أشهر فقط، يوم مزع جوني أجنحة الفراشة محاولًا أن يعلمني شيئًا وباءت محاولته بالفشل، بحلول غسق ذلك اليوم أخذ جوني ينظف بقايا الفراشة المتناثرة على الأرض باكيًا بحرقة:

"يا ليتني لا أشعر بالخوف أو الألم أو الذنب..".

كان صوته متحشرجًا، فكرت قليلًا ثم قلت:

"هذا ليس شيئًا يمكن لأي شخص فعله، ثم إنك عاطفي جدًا،

يليق بك أن تصبح رسامًا أو موسيقيًّا".

ضحك جوني دامعًا.

كان ذلك في الصيف، في ذروة الصيف تقريبًا، على عكس صقيع الآن حيث تخرج التأوهات مصحوبة ببخار أبيض، هل حدث هذا حقًّا؟ هل كان كل شيء أخضر ومورقًا ومزدهرًا؟ هل كل ما عشناه معًا كان حقيقيًّا؟

***

كثيرًا ما سألني جوني، كيف تكون الحال عندما لا أشعر بالخوف، ولا أشعر بأي شيء على الإطلاق، كنت أعاني كل مرة لأشرح له لكنه لم يكف عن السؤال أبدًا.

كان لدي أيضًا أسئلة كثيرة تُركت بلا إجابات، في البداية تساءلت عما دار بذهن قاتل جدتي عندما فعل فعلته، لكن السؤال تحور لسؤال آخر، لماذا يتظاهر البعض بالجهل عندما يعرفون؟ لم يمكنني فهم عقلية هؤلاء الناس.

ذات يوم كنت في طريقي لزيارة دكتور شيم، وكان هناك تقرير على شاشة التلفاز عن حرب تحدث في مكان ما بالعالم، وطفل باكٍ فقد ساقيه وإحدى أذنيه جراء القصف، نظر دكتور شيم إلى الشاشة بلا أي تعابير، وعندما سمع خطواتي استدار واستقبلني بابتسامة دافئة، كانت عيني مثبتة على الطفل الباكي خلف

ابتسامته، حتى معلول مثلي كان ليدرك أن الطفل يتألم ويعاني من حادث شنيع ومروع.

لكني لم أسأل الدكتور علام يبتسم؟ أو كيف يمكنك أن تبتسم وتدير ظهرك لشخص يتألم؟ هذا لأنني رأيت الجميع يفعل نفس الشيء، حتى أمي وجدتي، كانتا تديران القناة بلامبالاة، وأخبرتني والدتي أن المأساة البعيدة عنا لا تعتبر مأساتنا.

حسنًا، إذا افترضنا صحة هذا، إذًا ماذا عن هؤلاء الذين لم يحركوا ساكنًا ووقفوا يشاهدون أمي وجدتي تموتان؟ رأوا ذلك بأم أعينهم، وكانت المسافة قريبة جدًّا ولا يمكن التحجج بحجة المأساة البعيدة، تذكرت مقابلة مع أحد الشهود من أعضاء الجوقة، قال إن القاتل كان مهيبًا ويجول في مجون لدرجة أنه لم يستطع الاقتراب منه خوفًا.

يغض الناس أبصارهم عن المآسي البعيدة مدعين أن ما باليد حيلة، لكنهم يقفون خائفين مكتوفي الأيدي أمام مأساة تحدث على بعد خطوات منهم، يمكن للكثيرين أن يتعاطفوا لكنهم لا يتدخلون، يقولون إنهم تأثروا، لكنهم ينسون بسهولة، وعلى قدر علمي، كان كل ذلك كذبًا.

وأنا لا أريد العيش هكذا..

أصدر جوني صوتًا غريبًا، كان عاليًا وعميقًا كما لو خرج من

جوف معدته، صوت يشبه صرير تروس صدئة أو عواء حيوان بري، لماذا يحاول جوني جاهدًا أن يفعل ما لم يكن يجيده؟ ظل وصف "مثير للشفقة" على طرف لساني ولم أنطق به، حدق السلك الحديدي بجوني وقال:

"هل هذا كل ما يمكنك فعله؟ حسنًا، لا تندم إذًا على اختيارك".

انتزع السلك شيئًا ما بجانب جوني، كان السكين الذي ناوله إياه في وقت سابق، وبلا تردد وضع نصله على عنق جوني، لكنه لم يحظ بفرصة إيذائه، لأنني من تلقيت الطعنة، لأنني كنت بالفعل ميتًا.

73

بمجرد أن دفعت جسد جوني بعيدًا، غرز السلك الحديدي سكينه في صدري، ظل جوني يصرخ "أيها الشيطان"، نزع السلك الحديدي النصل من جسدي، ليسيل ذلك السائل الأحمر اللزج الدافئ سريعًا، فقدت الوعي بعد ذلك بلحظات.

هز شخص ما كتفي، كان جوني يعانقني.

"لا تمُت، سأفعل أي شيء من أجلك، أي شيء..".

بكى جوني، كان ملطخًا بالدماء، لمحت لوهلة السلك الحديدي ممددًا على الأرض، لا أعرف لماذا قلت تلك الكلمات لكني تمكنت

بالكاد من الهمس لجوني:

"اعتذر لمن جرحتهم، من قلبك، اعتذر للفراشة التي قتلتها، حتى الحشرات الصغيرة التي دهستها بلا قصد، اعتذر!".

كنت قد جئت كل هذه المسافة لأعتذر أنا لجوني، والآن أخبره أن يعتذر هو، لكنه أومأ برأسه:

"سأفعل، سأفعل، سأفعل أي شيء، أرجوك..".

انتفض جسد جوني وهو يعانقني، وفي لحظة ما لم أستطع سماع صوته، أغمضت عيني ببطء، كان التعب يجتاح جسدي وتركت نفسي كما لو كنت أغرق في بحر عميق، عدت إلى حيث كنت قبل ولادتي، بدا المشهد الضبابي يتضح شيئًا فشيئًا كما لو كنت أشاهد فيلمًا داخل عقلي.

***

يوم أن هطل الثلج أخيرًا، يوم عيد ميلادي، أمي ممدة على الأرض وغارقة في دمائها، رأيت جدتي بوجهها الشرس مثل الوحوش، تصرخ من خارج زجاج المطعم، ابتعد، اغرب من هنا! عادة ما تعبر هذه الكلمات عن الكره، كما صرخت دورا في وجه جوني من قبل، إذًا لماذا؟ لماذا قالت لي جدتي هذا؟

تناثرت الدماء، كانت دماء جدتي، تحول كل شيء أمام عيني

للون الأحمر، هل كانت جدتي تتألم كما أتألم الآن؟ هل شعرت بالرغم من ذلك بالارتياح لأنها هي من تتألم وليس أنا؟

دمعة، سقطت دمعة على وجنتي، كانت ساخنة حتى كادت تحرقني، وحينها فقط، تفجرت طاقة ما بداخلي، غمرني شعور غريب، وتدفق خارجي وتحطم السد الذي شيد في نفسي، تحول مفاجئ، شيء ما بداخلي قد تحرر للأبد.

"شعرت بذلك".

لا أعرف ما إذا كان حزنًا أو فرحًا أو وحدة أو ألمًا أو خوفًا أو غبطة، لكني فقط شعرت بشيء ما، أصبت بعدها بغثيان شديد، جعلني أريد تقيؤ كل ما يحدث بداخلي، مع ذلك ما زلت أعتقد أنها تجربة استثنائية، فجأة داهمني نعاس لا يقاوم، أغمضت عيني ببطء، واختفى وجه جوني الباكي عن ناظري..

أخيرًا، أصبحت إنسانًا، وفي تلك اللحظة بالذات، كانت الحياة تنساب من بين يدي.

في الواقع، هذه هي نهاية قصتي.

74

فيما يلي سأقص الكواليس الدرامية لقصتي..

زهقت روحي من جسدي وأنا أنظر إلى جوني، الذي ظل يعانقني ويبكي، كانت البقعة الصلعاء من رأسه تشبه النجمة، أدركت أنني لم أسخر منها قبلًا قط، هاهاها، قهقهت بصوت عال، وهذا آخر شيء أتذكره.مكتبة .. سُر مَن قرأ

عندما استيقظت مرة أخرى، كنت في المستشفى، ظللت أغيب عن الوعي وأعود مرات ومرات، ثم دخلت في سبات لفترة طويلة، استغرق الأمر بضعة أشهر حتى أتعافى تمامًا وأتمكن من المشي مرة أخرى.

غالبًا ما كان يراودني نفس الحلم وأنا في غيبوبتي، حيث أقف تحت أشعة الشمس بفناء المدرسة في اليوم الرياضي مع جوني وسط سحب من الغبار، كانت الشمس حارقة، وكنا نشاهد سباقًا، ابتسم جوني ووضع شيئًا في كفي، بسطت أصابعي لأرى كرة شفافة بها خط أحمر منحنٍ بالمنتصف كما لو كان ابتسامة، أقلبها بين أناملي لترسم وجهًا مبتسمًا تارة ووجهًا حزينًا تارة أخرى، كانت حلوى البرقوق.

وضعت الحلوى في فمي، مذاقها حلو وحامض، سال لعابي وقلبتها بلساني، كانت تصطك بأسناني أحيانًا، وفجأة تخدر

لساني بفعل المذاق اللاذع، غريب ومرير، ووسط كل ذلك تفوح منها رائحة زكية جعلتني أستنشقها رغبة في المزيد.

طاخ، انطلقت إشارة بدء السباق في الهواء، ركلنا الأرض وجرينا، لم يكن سباقًا، بل مجرد هرولة، كل ما كان علينا فعله هو أن نشق الريح بأجسادنا.

***

عندما فتحت عيني، كان دكتور شيم بجانبي، وهو من أخبرني بكل ما حدث ذلك اليوم.

بعد فترة وجيزة من فقداني للوعي، اقتحم البروفيسور يون المكان مع أفراد الشرطة، كانت القصة لتصبح أكثر روعة لو أنهيناها بأنفسنا دون تدخل من الكبار، لكن بالنسبة لآبائنا كنا لا نزال مجرد أطفال، أخبرت دورا معلمتنا في الفصل بالأمر، وأدلى بعض الطلاب بمعلومات للشرطة عن علاقة جوني بكعكة البخار، تمكنت الشرطة بعد ذلك من القبض على كعكة البخار وبعدها لم يكن من الصعب الوصول لوكر السلك الحديدي.

طعن جوني السلك الحديدي، ولكنه لم يصبه بجروح خطيرة، وقد تعافى السلك الحديدي أسرع مني وواجه محاكمة لما فعل، كانت الجرائم التي ارتكبها لا يمكن تخيلها ومن الصعب سرد كل تفاصيلها هنا، سمعت فيما بعد أنه ظل مبتسمًا طوال المحاكمة

على الرغم من الحكم القاسي الذي صدر بحقه، كيف سولت له نفسه هذا؟ كنت آمل لو تسنح له فرصة ثانية ليغير تعبيره في تلك اللحظة.

***

قال الدكتور شيم إن طعن جوني للسلك الحديدي سيعتبر دفاعًا عن النفس، وإن جوني كان يتلقى علاجًا نفسيًّا لكنه لم يكن مستعدًّا لرؤيتي بعد، أخذ البروفيسور يون إجازة من الجامعة لتغيير حياته والعيش فقط من أجل جوني، وما زال جوني لا يتحدث معه كثيرًا، لكن البروفيسور يون قال إنه لن يتوقف عن المحاولة.

أخبرني دكتور شيم أيضًا أن دورا زارتني عدة مرات، وأعطاني بطاقة كانت قد تركتها لي، تمامًا مثل دورا التي تكره الكلمات فتحت البطاقة لأجد صورة فقط، كانت صورة لها وهي تركض وكلتا ساقيها تحلقان في الجو، انتقلت دورا إلى مدرسة بها فريق للعدو والتتابع، وبمجرد أن فعلت فازت بالمركز الثاني على مستوى المقاطعة، يبدو أنها وجدت حلمها مرة أخرى، الذي قالت عنه مرة إنه تبخر، وأعتقد أن والديها ما زالا يناديانها بـ"دوراي" لكن بابتسامة راضية.

فجأة قال دكتور شيم:

"تغيرت تعابير وجهك كثيرًا".

حكيت له الشيء المدهش الذي حدث لي في تلك الليلة، وذاك التغيير الغريب الذي حدث لعقلي وجسدي فجأة.

"عندما تتعافى تمامًا، دعنا نجري فحصًا بالرنين المغناطيسي، ونعيد جميع فحوصاتك السريرية، أعتقد أن الوقت قد حان للتحقق من مدى تغيير دماغك، في الواقع، دائمًا ما كنت أشك في تشخيص حالتك، كنت طبيبًا أيضًا، لكن الأطباء اعتادوا على إطلاق المسميات على المرضى، وهكذا يمكنهم تقبل بعض الأعراض والظواهر غير المألوفة، والأشخاص غير العاديين، ربما تكون المسميات واضحة ومفيدة في الكثير من الأوقات، لكن الدماغ البشري أغرب مما نعتقد، وما زلت أعتقد أن القلب قد يطغى على العقل أحيانًا، ما أعنيه هو ربما ما حدث فقط أن دماغك قد نما بشكل مختلف قليلًا عن الآخرين".

قالها وابتسم.

"وهل النمو يعني التغيير؟".

"ربما، وهذا التغيير يمكن أن يكون للأفضل أو للأسوأ".

تذكرت بإيجاز الأشهر القليلة الماضية مع جوني ودورا، وكنت آمل أن يتغير جوني للأفضل، على الرغم من أنني يجب أن أفكر أولًا فيما تعنيه عبارة "للأفضل" بالضبط.

هم دكتور شيم بالمغادرة قائلًا إنه بحاجة للذهاب إلى مكان ما، وقبل مغادرته غرفة المستشفى، تردد للحظة ثم قال مبتسمًا:

"أكره الأشخاص الذين يفسدون المفاجآت ويكشفون عما داخل الهدايا، لكن أحيانا -مثل الآن- يصعب علي الكتمان، ساعطيك تلميحًا فقط، أنت على وشك مقابلة شخص ما بعد قليل، وأتمنى أن تعجبك المفاجأة".

في غضون ذلك، أعطاني رسالة قد تركها لي جوني، قلت:

"سأقرأها بعد أن تغادر".

بعد أن غادر الدكتور شيم غرفة المستشفى، فتحت الرسالة، كانت ورقة بيضاء مربعة مطوية بعناية، وبها بعض الكلمات المكتوبة بخط منمق:

أنا آسف.
وممتن.
من قلبي.

حدقت في النقطة التي أعقبت "من قلبي" لوهلة، كنت آمل أن تغير هذه النقطة حياة جوني، هل سنلتقي مرة أخرى؟ أتمنى ذلك.. من قلبي.

75

فتح الباب، كان الدكتور شيم مرة أخرى، يدفع كرسيًّا متحركًا جالسًا به شخص يبتسم لي، كانت ابتسامة مألوفة، ابتسامة طالما رأيتها منذ ميلادي:

"أمي!".

بمجرد أن قلت ذلك، انهمرت الدموع من عيني أمي، ظلت تبكي وهي تداعب وجنتي وتربت على رأسي وشعري، لم أبكِ، لم أعرف إن كان هذا بسبب مشاعري التي لم تتطور تمامًا بعد، أم بسبب أنني كبرت على البكاء أمام أمي.

مسحت دموع أمي وعانقتها، الغريب أنه كلما فعلت ذلك بكت أكثر.

كالمعجزات، استيقظت أمي بينما كنت أنا في الغيبوبة، فعلت أمي ما قال عنه الجميع إنه مستحيل، لكن أمي كان لها رأي آخر، قالت إنني من فعل المستحيل، هززت رأسي، أردت أن أقول المزيد وأخبرها بكل ما حدث، لكن من أين أبدأ؟ شعرت بدفء ينساب على وجنتي، ثم مسحت أمي شيئًا من على خدي، كانت دموعًا، دموعًا تنهمر على وجهي وأنا أبكي وأضحك في الوقت نفسه، وكذلك فعلت أمي!

الخاتمة

هذا هو ربيعي العشرين، تخرجت من المدرسة وأصبحت ما يطلق عليه راشد.

دارت أغنية هادئة في الحافلة بينما يغفو الجميع، كنا نمر عبر ربيع خلاب يرى من النافذة، تفتحت الكثير من الزهور والبراعم التي كادت أن تنطق "أنا الربيع، أنا هنا"، وكنت في طريقي وسط هذه الزهور لمقابلة جوني، ليس لأي هدف معين ولا لأن لدي ما أقوله، فقط لمقابلته، مقابلة صديقي الطيب الذي قال الجميع عنه إنه وحش.

لكن من الآن فصاعدًا هذه قصة مختلفة تمامًا، جديدة، وغير متوقعة.

***

لا أعرف كيف ستكون هذه القصة، فكما قلت، لا أنت ولا أنا ولا أي شخص يمكنه أن يجزم إن كانت القصة سعيدة أم مأساوية، وربما يستحيل تصنيفها بدقة أصلًا، فقد تختلف نكهات الحياة بينما تمر.

وقد قررت أن أواجهها، بقدر ما تحمله لي، وبقدر ما أحمله من مشاعر، لا أكثر ولا أقل.

كلمة الكاتبة

منذ أربع سنوات وفي فصل الربيع، أنجبت طفلي، وكان لهذا الحدث بعض القصص المضحكة، لكنها ليست عاطفية ولم أجد حتى أي صعوبة في الولادة، بدا كل شيء غريبًا وجديدًا، وبعد بضعة أيام، كلما رأيت طفلي يتقلب في مهده، كنت أبكي تلقائيًّا، وحتى الآن لا أجد سببًا لذلك، فلا يمكن تفسير دموعي بأي عاطفة.

كل ما في الأمر أن الطفل كان صغيرًا جدًّا، مجرد سقوطه من مهده المنخفض، أو تركه وحده لبضع ساعات، لن ينجو، هذا المخلوق العاجز عن فعل أي شيء بمفرده، أُلقي به في هذا العالم ليقف في مهب الريح، لم أدرك بعد حقيقة أنه طفلي أنا، ولم أكن متأكدة أنني سأتعرف عليه لو فقدته ووجدته مرة أخرى، سألت نفسي سؤالاً، هل سأتمكن من منح هذا الطفل حبًّا غير مشروط بغض النظر عن شكله؟ وحتى لو نشأ ليصبح شخصًا مختلفًا تمامًا عن توقعاتي؟ وانطلاقًا من هذا السؤال، خُلقت شخصيتا طفلين، هل كنت سأحبهما لو كانا أطفالي؟ هكذا جاء إلى العالم يون جيه وجوني.

يولد الأطفال كل يوم، ويستحق كل منهم المباركة وإتاحة كل الفرص، ومع ذلك، فإن بعضهم سيصبح منبوذًا اجتماعيًّا والبعض الآخر سيجد طريقه للحكم والسلطة ولكن بعقل مريض، وقلة

منهم فقط سينجحون رغم كل الصعاب أن يصبحوا بشرًا تمس القلوب.

لا أعلم إن كانت هذه فكرة مبتذلة، لكني أدركت أن ما يجعل الإنسان إنسانًا، والوحش وحشًا، هو الحب، وهذه القصة التي أردت عرضها.

عملت على المسودة الأولى لرواية لوز لمدة شهر وانتهيت منها في أغسطس عام 2013، عندما كان طفلي يبلغ من العمر أربعة أشهر فقط، ثم قمت بمراجعتها وتعديلها بشكل مكثف لمدة شهر في نهاية عام 2014، ومرة أخرى في أوائل عام 2016، ولم تفارقني قصة الصبيين طوال تلك المدة، لذا يمكنني القول إن الأمر استغرق أكثر من ثلاث سنوات لكتابة هذه القصة من البداية إلى النهاية.

أدين بالامتنان لوالدي وعائلتي لمنحي هبة الحب غير المشروط، كنت أحيانًا أشعر بالحرج كوني نشأت في بيئة مستقرة عاطفيًا لأني اعتقدت أن هذه النشأة السوية يمكن أن تكون عائقًا في مشواري ككاتبة، لكن هذه الفكرة تغيرت على مر السنين، أدركت أن الدعم والحب غير المشروط اللذين تلقيتهما طوال سنوات مراهقتي كانا هدية نادرة وثمينة، وأنهما كانا بمثابة سلاح لا يقدر بثمن، سلاح منحني القدرة للنظر إلى العالم من زوايا مختلفة بلا خوف، وأدركت ذلك فقط عندما أصبحت أمًا.

أود أن اتقدم بالشكر للجنة حكام جائزة شانجبي لادب الناشئة،

وخاصة أنني علمت أن من بينهم أحد عشر مراهقًا، وأود أن أشكر أيضًا قارئي الأول "هاء"، والذي قرأ جميع كتاباتي التي لم تنشر ووضعها على قائمة قراءاته الخاصة، ومن دون تشجيع "هاء" الذي منحني الثقة لمواجهة الإحباط كل مرة لكان من الصعب عليّ الاستمرار في تحدي نفسي، وأخيرًا أود شكر محرري شانجبي في قسم أدب الناشئة، جونج سو يونج وكيم يونج سون، كنتما أول أصدقاء لي في عالم مجهول، آسفة لو جعلت مهمتكما صعبة أحيانًا، وتقبلا تحياتي الخجولة وإنه لشرف كبير أن أعمل معكما.

أنا لست من النوع الذي يناصر بنشاط القضايا الاجتماعية، لكني أحاول فقط البحث في داخلي عن قصص للكتابة، أتمنى من كل قلبي أن تكون هذه الرواية قد دفعت البعض للتواصل مع المنبوذين، وخاصة العقول الشابة التي لا تزال لديها إمكانات كبيرة في نفوسهم، أعلم أنها أمنية صعبة المنال، لكني ما زلت أطمع في ذلك، يتوق الأطفال للحب، لكنهم في الوقت نفسه من يمنحون أكبر قدر منه، وهكذا كنا جميعًا، كتبت بأول صفحة إهداء لأكثر شخص أحبه، الشخص الذي منحني المزيد من الحب.

ربيع 2017

سون وون بيونج

مكتبة
t.me/soramnqraa

جائزة "تشانجبي" لأفضل عمل أدبي كوري لليافعين 2016

telegram @soramnqraa

بطل الرواية مراهق يدعى "يون جيه"، أدركت أمه منذ عامه الأول اختلافه عن الآخرين، فهو لا يبتسم أبدًا؛ ظلت هذه الحالة مجهولة الأسباب إلى أن تم تشخيص حالته بكونها اضطرابًا عقليًّا عاطفيًّا يسمى "اللامفرداتية"؛ حيث لا يستطيع التعبير عن مشاعره أو تحديدها، والذي ترجع أسبابه إلى صغر حجم لوزته الدماغية عن الحجم الطبيعي.

يستفيد "يون جيه" من تدريبات أمه وجدته له على افتعال بعض التعبيرات والردود المناسبة للعديد من المواقف، ولكنه يفقد جدته فجأة ثم تدخل أمه في غيبوبة بسبب حادث عنف عشوائي يحطم عالمه ويتركه وحيدًا.

تتقاطع حياة البطل مع مراهق آخر يعاني من نوبات الغضب وتعبيره المفرط عن عواطفه، حيث يتواجهان قبل أن تتطور علاقتهما، لنكون أمام قصة وحش يقابل وحشًا آخر.

سون وون بيونج: روائية وكاتبة سيناريو ومخرجة كورية ولدت في سيول عام 1979، حصلت على البكالوريوس في الفلسفة وعلم الاجتماع ثم قررت التحول إلى دراسة السينما والعمل بها حيث فازت بالعديد من الجوائز، ثم بدأت في التركيز على الكتابة السردية حيث ظهرت أول رواية طويلة لها (لوز) عام 2017 والتي فازت بجائزة شانجبي الكورية المرموقة، كما حصلت على جائزة جيجو لأدب السلام.

SEFSAFA PUBLISHING HOUSE
WWW.SEFSAFA.NET
ISBN 978-977-821-306-5